أهم صفات نور الدين زنكي

الفصل الرابع

أهم معالم التجديد والإصلاح

في دولة نور الدين

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

اتخذ نور الدين محمود من سيرة عمر بن عبد العزيز نموذجاً يقتدي به في دولته، فقد كتب الشيخ العلامة أبو حفص معين الدين عمر بن محمود بن خضر الإربلي سيرة عمر بن عبد العزيز لكي يستفيد نور الدين منها في إدارة دولته ولقد آتت معالم الإصلاح والتجديد الراشدي في عهد عمر بن عبد العزيز ثمارها في الدولة الزنكية، فقد أقتنع نور الدين بأهمية التجارب الإصلاحية في تقوية وأثراء المشروع النهضوي وتمكينه في إيجاد وصياغة الرؤية اللازمة في نهوض الأمة وتسلمها القيادة فللتجارب التاريخية دور كبير في تطوير الدول وتجديد معاني الإيمان في الأمة ولذلك حرص على معرفة هذه السير المباركة لكي يقتدي برجالها.

قال أبو حفص معين الدين الإربلي في مقدمة كتابه عن عمر بن عبد العزيز وتقديمه ذلك الكتاب لنور الدين.. علماً منه الاقتداء عن سلف الفضلاء العقلاء يكمل الأجر ويبقى الذكر واتباع سنن المهديين الراشدين يصلح السريره ويحسن السيرة وأن الله سبحانه وتعالى أمر نبيه ﷺ بالاقتداء بسلفه من الأنبياء فقال عز من قائل: M أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡ... L (الأنعام: ٩٠) وقال تعالى: M ? @ A B C D E L... F G H (هود: ١٢٠) فلذلك اشتد حرصه ـ أدم الله سعادته ـ على جمع السير الصالحة والآثار الواضحة فحينذ رأيت حقاً على بذل الوسع في مساعدته واستنقاذ القوة في معاضدته بحكم صدق الولاء وأكيد الإخاء، فصرفت وجه همتي إلى جمع سيرة السعيد الرشيد عمر بن عبد العزيز ﷺ

والتجأت إلى الله الكريم جل اسمه أن يحسن معونتي ويُيسّر ما صرفت إليه عزيمتي، فحين شرح الله صدري لذلك، ولاحت إمارات المعونة، بادرت إلى جمع هذه السيرة برسم خزانته المعمورة، معاونة على البر والتقوى[1].

لقد قدم هذا الشيخ الجليل منهاجاً علمياً عملياً لنور الدين زنكي من خلال سيرة عمر بن عبد العزيز، فبنى دولة العقيدة، وحكم الشريعة وقمع البدع، وأقام العدل، ورفع الضرائب والمكوس عن الأمة، وعمل على إحياء السنة، وعمق هوية الأمة، وفجر روح الجهاد فيها ونشر العلم، وساهم في تحقيق الازدهار والرخاء وكان نسيج وحده في زهده وورعه وعبادته وصدقه وأهتم بالإدارة والاقتصاد والقوات المسلحة، والمدارس العلمية والمؤسسات الاجتماعية وكان شديد التقيد بأحكام الشريعة الغراء يقول شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي الدمشقي المعروف بأبي شامة عن نور الدين زنكي: . . فأطربني ما رأيت من آثاره، وسمعت من أخباره، مع تأخر زمانه وتغير خلاَّنه، ثم وقفت بعد ذلك في غير هذا الكتاب على سيرة سّيّد الملوك بعده، المَلك الناصر صلاح الدين، فوجدتهما في المتأخرين كالعُمرين ﷺ في العدل والجهاد واجتهدا في إعزاز دين الله أي اجتهاد وهما ملكا بلدتنا وسُلطانا خُطَّتنا خصَّنا الله تعالى بهما، فوجب علينا القيام بذكر فضلَهما، فعزمت على إفرد ذكر دولتيهما بتصنيف يتضمن التقريظ لهما والتعريف، فلعلهً يقف عليه من الملوك من يسلك في ولايته ذلك السلوك، فلا أبعد أنهما حجة من الله على الملوك المتأخرين وذكرى منه سبحانه فإن الذكرى تنفع المؤمنين فإنهم قد يستبعدون طريقة الخلفاء الراشدين، ومن حذا حذوهم من الأئمة السابقين، ويقولون نحن في الزمن الأخير وما لأولئك من نظير، فكان فيما قدر الله سبحانه من سيرة هذين الملكين إلزام الحجُةً عليهم بمن هو في عصرهم من

(١) الكتاب الجامع لسيرة عمر بن عبد العزيز (١/ ٢).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بعض ملوك دهرهم، فلن يعجز عن التشبه بهما أحد، إن وفق الله تعالى الكريم وسددَّ..

هذان حجة على المتأخرين من الملوك والسلاطين فلله درهما من ملكين تعاقباً على حسن السيرة وجميل السريرة وهما حنفي وشافعي شفى الله بهما كل عيّ، وظهرت من خالقهما العناية.... والفضل للمتقّدم، فكأن زيادة مدة نَور الدين كالتنبيه على زيادة فضله، والإرشاد إلى عظيم محلهّ، فإنه أصل ذلك الخير كله مهد الأمور بعد له وجهاده وهيبته في جميع بلاده، مع شدة الفتق واتساع الخرق، وفتح من البلاد، ما استعين به على مداومة الجهاد فهان على من بعده على الحقيقة، سلوك تلك الطريقة... فما أحقهما بقول.

الشاعر:

وألبس الله هاتيك العظامَ وإن بَلِين تحت الثرى عفواً وغفرانا
سقى ثرى أودِعَوه رحمةً ملأتْ مثوى قبورهم روحاً وريحانا[٢]

وإليك أخي أهم معالم التجديد والإصلاح التي قام بها نور الدين محمود الشهيد في دولته.

أولاً: الحرص على تطبيق الشريعة:

لم تكن مقاليد الحكم في دولة نور الدين أداة لخدمة أهداف الطبقة الحاكمة، كما هو الحال في كثير من الدول والحكومات، ولا لتحقيق وحماية مصالح حفنة من البيروقراطيين، كما أنها لم تكن مجرد ذريعة عملية "براغماتية" لتسيير الشؤون المادية المنفعية الصرفة للدولة فحسب، بل إن هنالك أهدافاً أكبر بكثير، وقيماً ومبادئ أبعد مدى، كان على أجهزة الدولة أن تسعى إلى

(٢) عيون الروضتين (١/ ٢٧، ٢٨).

تحقيقها في واقع الحياة، وأن تبذل ما تمتلكه من قدرات وخبرات للسير بالأمة قدما صوب آفاقها الرحبة الشاملة إن تنفيذ شريعة الإسلام وقيمه ومبادئه في واقع الحياة، وبعث المجتمع الإسلامي كان هو الهدف المركزي لدولة نور الدين محمود فهي إذن دولة ملتزمة وليست صاحبة أغراض منفعية وكسب واحتراف وقد أكد نور الدين على هذه الحقيقة في أكثر من مناسبة وحشد لها الكثير من الأقوال والتأكيدات والتصريحات ودعا بحماس منقطع النظير إلى تحقيقها، وسعى ـ فعلاً ـ إلى أن تنتقل هذه الدعوة ـ رغم المصاعب والعقبات ـ من ميدان الفكر إلى ميدان التطبيق[3].

قال: ونحن نحفظ الطرق من لصّ وقاطع طريق، والأذى الحاصل منها قريب، أفلا نحفظ الدين ونمنع عنه ما يناقضه، وهو الأصل.

وقال: نحن شحن للشريعة نمضي أوامرها[4].

وقال مخاصباً أحد ولاته: انظر في العوادي وما يجري فيها من الدعاوي، وميز بين المحاسن، والمساوئ، وأحمل الأمور فيها على الشريعة[5].

وقال متحدثاً إلى اثنين من كبار موظفيه: والله إني أفكر في وال وليته أمور المسلمين فلم يعدل فيهم أو فيمن يظلم المسلمين من أصحابي وأعواني وأخاف المطالبة بذلك (أمام الله). فالله عليكم، وإلا فخبزي عليكم حرام، ولا تريان قصة مظلوم لا ترفع إلى، أو تعلمان مظلمة إلا وأعلماني بها وارفعاها إليّ[6].

(٣) نور الدين محمود الرجل والتجربة (صـ٨٦).
(٤) الباهر (صـ١٦٦).
(٥) البرق (صـ١٤٦).
(٦) الكواكب (صـ٢٥).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقال فيما يلخص موقفه الملتزم بعبارة تثير الإعجاب: إني جئت هاهنا امتثالاً لأمر الشرع وثمة شهادات المؤرخين تؤكد جميعاً هذا الحرص على الالتزام وعلى جعل الدولة أدة لتحقيق كلمة الله في الأرض.

يقول ابن الأثير: كان نور الدين يعظم الشريعة المطهرة ويقف عند أحكامها يقول في مكان آخر: وعلى الحقيقة فهو الذي جدد للملوك اتباع سنة العدل والإنصاف، وترك المحرمات من المأكل والمشرب والملبس وغير ذلك، فإنهم كانوا قبله كالجاهلية، همة أحدهم بطنه وفرجه لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً، حتى جاء الله بدولته فوقف مع أوامر الشرع ونواهيه وألزم بذلك أتباعه وذويه، فاقتدى به غيره منهم، واستحيوا أن يظهر عنهم ما كانوا يفعلونه[7].

ويقول أبو شامة: سمعت أبا شداد يقول: أما فكره ففي إظهار شعار الناس وتأسيس قاعدة الدين، ويقول في مكان آخر: كان أشهى ما إليه كلمة حق يسمعها، أو إرشاد إلى سنة يتبعها.

ويقول ابن كثير[8]: كان يقوم في أحكامه بالمعدلة الحسنة واتباع الشرع المطهر... وأظهر ببلاده السنة وأمات البدعة، ويقول ابن قاضي شهبة: كان نور الدين ـ لما صارت له الموصل ـ قد أمر كمشتكين شحنتها ألا يعمل شيئاً إلا بالشرع إذا أمره القاضي، وألا يعمل القاضي والنواب كلهم شيئاً إلا بعد مراجعة الشيخ عمر الملاء ـ أحد شيوخ الموصل الصالحين ـ وعندما حضر والي الموصل وبعض القادة والأمراء فيها إلى الشيخ عمر لكي يكتب إلى نور الدين

(٧) الباهر (صـ١٦٥، ١٦٦).
(٨) البداية والنهاية (١٦/ ٤٨١).

كتاباً يطلب منه أن يسمح بتشديد العقوبة على بعض المخالفات بسبب كثرة مرتكبيها وعدم ارتداعهم.

وكانت أوامر نور الدين أن تكون العقوبات مطابقة لما ورد بأحكام الشريعة بدون زيادة ونقصان ولم يجرؤ الوالي على الكتابة لنور الدين بهذا الموضوع خشية التأنيب وأعتقد أن الشيخ عمر بما له من دالة على نور الدين ربما نجح بالمطلوب، فكتب الشيخ عمر كتاباً إلى نور الدين يقول فيه: إن الزعار وقطاع الطرق والمفسدين قد كثروا ويحتاج إلى نوع سياسة، ومثل هذا لا يجيء إلا بقتل وصلب وضرب، وإذا أخذ مال إنسان في البرية من يجئ ليشهد له[9].

فأجاب نور الدين على ظهر رسالة الشيخ بقوله: إن الله تعالى خلق الخلق وهو أعلم بمصلحتهم، وإن مصلحتهم تحصل فيما شرعه على وجه الكمال، ولو علم أن على الشريعة زيادة في المصلحة لشرعه لنا، فما لنا من حاجة على زيادة ما شرعه الله تعالى، فمن زاد فقد زعم أن الشريعة ناقصة، فهو يكملها بزيادته وهذا من الجرأة على الله وعلى شرعه، والعقول المظلمة لا تهتدي، فالله سبحانه يهدينا وإياك إلى الكتاب وإلى الصراط المستقيم، فلما وصل الجواب إلى الشيخ عمر جمع الناس وقرأ عليهم كتابه وجواب نور الدين عليه قائلاً: انظروا في كتاب الزاهد إلى الملك وكتاب الملك إلى الزاهد[10].

وكان نور الدين معتنياً بحفظ أصول الديانات، ولا يمكن أحداً من إظهار ما يخلف الحق، ومتى أقدم على ذلك أدبه بما يناسب بدعته وكان لا يقدم على إجراء ما عام أو شخصي، إلا بعد أن يستفتي الفقهاء الذين كانوا أشبه بمجلس شيوخ تشريعي أو هيئة استشارية تستلهم في قراراتها النهائية مؤشرات الشريعة

(٩) عيون الروضتين (١/ ٢٧٦).
(١٠) السابق نفسه.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الغراء بحيث لا يقدم أحد في الدولة على عمل أو إجراء إلا ويجيء ذلك العمل منسجماً مع فكر الدولة وعقيدتها وشريعتها[11].

ولم يدع نور الدين منكراً يسود جانباً من جوانب الحياة الاجتماعية إلا عمل على إزالته وحث موظفيه على التنفيذ الفوري لأوامره بهذا الصدد. . إنه لم يشأ أن يقاتل العدو في الخارج وفي الداخل يعشش الخراب والتفكك والعفن فيدمر الإنسان المسلم، ويفتت العلاقات الاجتماعية، ويسترف القدرات الجهادية الخلاقة للأمة المسلمة، والتي بدونها، كانت تنتهي دائماً إلى مواقع الفرار والذلة والهزيمة.

لقد قالها يوماً أحد كبار الشيوخ ـ برهان الدين البلخي ـ وجهاً لوجه أمام نور الدين: أتريدون أن تنصروا وفي عسكركم الخمور والطبول والزمور؟ فلا والله، وما كان نور الدين بحاجة إلى من يقول له هذا ولكنها الذكرى التي تهز الفؤاد وتقود إلى مزيد من الإنجاز الذي يبني الجبهة الداخلية النظيفة، المتينة القديرة على مواصلة المهمة القتالية التي قادها نور الدين. . لقد أصدر أوامره إلى كافة موظفيه بالعمل على منع ارتكاب الفواحش وشرب الخمور، أو بيعها في جميع بلاده، أو إدخالها إلى بلد ما، وإسقاط كل ما يدخل تحت شبه الحرام وتصفية آثار الآثام، وإراقة الخمور، وإزالة كل ما ينّد الظلام، وكان ينزل عقابه السريع العادل بكل من خالف عن أمره وكل الناس عنده فيه سواء[12].

لقد بلغ من التزام نور الدين بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ حداً في غاية الروعة والجمال وشدة المحبة لرسول الإسلام، فقد حكى الشيخ أبو البركات أنه حضر مع عمه الحافظ أبي القاسم مجلس نور الدين لسماع شيء من الحديث، فمّر أثناء الحديث أن النبي ﷺ خرج متقلداً سيفاً، فاستفاد نور الدين أمراً لم

(١١) مرآة الزمان (٨/ ٢٤٧).
(١٢) نور الدين محمود الرجل والتجربة (صـ٨٨).

يكن يعرفه وقال كان رسول الله ﷺ يتقلد السيف؛ يشير إلى التعجب من عادة الجند إذ هم على خلاف ذلك لأنهم يربطونه بأوساطهم فلما كان من الغد مر، وأنا تحت القلعة والناس مجتمعون ينتظرون ركوب السلطان، فوقفنا ننظر إليه، فخرج من القلعة وهو متقلد السيف وجميع عسكره كذلك[13].

رحم الله الملك العادل نور الدين الذي لم يفرط في الاقتداء بالنبي ﷺ بمثل هذه الحالة، بل لما بلغته رجع بنفسه ورد جنده عن عوائدهم اتباعاً لما بلغه عن نبيه صلى الله عليه وسلم، فما الظن بغير ذلك من السنن. وما أحسن ما قال فيه محمد بن نصر القيسراني:

ذو الجهادين من عدوّ ... فهو طول الحياة في هيجاء
أيها المالك الذي ألزم الناس ... سلوك المحجة البيضاء
قد فضحت الملوك بالعدل ... لما سرت في الناس سيرة الخلفاء
قاسماً ما ملكت في الناس حتى ... لقسمت التقى على الأتقياء

وقال فيه ابن منير:

عفّى جهادك كل رسم مخوفة ... وعفت بصفوة عدلك الأكدار
ومحا المظالم منك نظرة راحم ... لله في خطراته أسرار
غضبان للإسلام مال عموده ... فلنوره مما عراه نوار
لم يَبق ما كسى مسلم سلقاً ولا ... ساع لمظلمة ولا عشّارَ
همدوا كما همدت ثمود وقادهم ... لخسارهم مما أتوه قدارَ
العار في الدنيا شقوا بلباسه ... ولباسهم يوم الحساب النار
كم سيرة أحييتها عمريّة ... رفعت لها في الخافقين منار

(١٣) عيون الروضتين (١/ ٣٨٤).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ونوافـــل صـــيرتهن لوازمـــاً بأقلـــها تـــستعبد الأحـــرار
أمـــا نهـــارك فهـــو ليـــل مجاهـــدٍ والليـــل مـــن طـــول القيـــام نهـــارَ

ولقد تحققت في دولة نور الدين محمود آثار تحكيم شرع الله تعالى، من التمكين، والأمن والاستقرار، والنصر والفتح المبين والعز والشرف، وبركة العيش ورغد الحياة في عهده وانتشار الفضائل وانزواء الرذائل.

إن آثار تحكيم شرع الله في الشعوب التي نفذت أوامر الله ونواهيه ظاهرة بينة لدارس التاريخ، وإن تلك الآثار الطيبة قد رأينها في دراستنا لدولة الخلفاء الراشدين، ودولة عمر بن عبد العزيز، ودولة نور الدين زنكي، ودولة يوسف ابن تاشفين، ودولة محمد الفاتح وهي من سنن الله الجارية والماضية لا تتبدل ولا تتغير، فأي قيادة مسلمة تسعى لهذا المطلب الجليل والعمل العظيم مخلصة لله في قصدها، مستوعبة لسنن الله في الأرض، فإنها تصل إليه ولو بعد حين، وترى آثار ذلك التحكيم على أفرادها ومجتمعاتها ودولها وحكامها.

إن الغرض من الأبحاث التاريخية الإسلامية الاستفادة الجادة من أولئك الذين سبقونا بالإيمان في جهادهم وعلمهم وتربيتهم، وسعيهم الدؤوب لتحكيم شرع الله، وأخذهم بسنن الله وفقهه ومراعاة التدرج والمرحلية والارتقاء بالشعوب نحو الكمالات الإسلامية المنشودة، إن التوفيقات الربانية العظيمة في تاريخ أمتنا يجريها الله تعالى على يدي من أخلص لربه ودينه، وأقام شرعه وقصد رضاه وجعله فوق كل اعتبار[14].

قال تعالى: M فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا ¶ μ ´
يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا L (النساء: ٦٥).

(١٤) الخليفة الراشد والمصلح الكبير عمر بن عبد العزيز (صـ٣٥٧).

قال تعالى: M > = < ? @ A B C D
E F G H I J K L M N O P
Q R S T U W X Y Z [... L (النور: ٥٥).

قال ابن كثير في تفسير هذه الآية:

هذا وعد من الله لرسوله ﷺ. بأنه سيجعل أمته خلفاء الأرض، أي: أئمةَ الناس والولاةَ عليهم، وبهم تصلح البلاد، وتخضع لهم العباد، ولَيُبدلَنّ بعد خوفهم من الناس أمنا وحكما فيهم، وقد فعل تبارك وتعالى ذلك. وله الحمد والمنة، فإنه لم يمت رسول الله ﷺ حتى فتح الله عليه مكة وخيبر والبحرين، وسائر جزيرة العرب وأرض اليمن بكمالها. وأخذ الجزية من مَجُوس هَجَر، ومن بعض أطراف الشام، وهاداه هرقل ملك الروم وصاحب مصر والإسكندرية ـ وهو المقوقس ـ وملوك عمان والنجاشي ملك الحبشة، الذي تَملَّك بعد أصْحَمة، رحمه الله وأكرمه.

ثم لما مات رسول الله ﷺ واختار الله له ما عنده من الكرامة، قام بالأمر بعده خليفته أبو بكر الصديق، فَلَمّ شَعَث ما وَهَى عند موته، عليه الصلاة والسلام وأطَّدَ جزيرة العرب ومهدها، وبعث الجيوش الإسلامية إلى بلاد فارس صحبة خالد بن الوليد ﷺ، ففتحوا طرفا منها، وقتلوا خلقا من أهلها. وجيشا آخر صحبة أبي عبيدة ﷺ، ومن معه من الأمراء إلى أرض الشام، وثالثًا صحبة عمرو بن العاص ﷺ، إلى بلاد مصر، ففتح الله للجيش الشامي في أيامه بُصرى ودمشق ومَخَاليفهما من بلاد حَوران وما والاها، وتوفاه الله ﷻ، واختار له ما عنده من الكرامة. ومَنّ على الإسلام وأهله بأن ألهم الصديق أن استخلف عمر الفاروق، فقام في الأمر بعده قياما تاما، لم يَدُر الفلك بعد الأنبياء ﷺ على مثله، في قوة سيرته وكمال عدله. وتم في أيامه فتح البلاد الشامية

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

بكمالها، وديار مصر إلى آخرها، وأكثر إقليم فارس، وكَسَّر كسرى وأهانه غاية الهوان، وتقهقر إلى أقصى مملكته، وقَصَّر قيصر، وانتزع يده عن بلاد الشام فانحاز إلى قسطنطينة، وأنفق أموالهما في سبيل الله، كما أخبربذلك ووعد به رسول الله، عليه من ربه أتم سلام وأزكى صلاة.

ثم لما كانت الدولة العثمانية، امتدت المماليك الإسلامية إلى أقصى مشارق الأرض ومغاربها، ففتحت بلاد المغرب إلى أقصى ما هنالك: الأندلس، وقبرص، وبلاد القيروان، وبلاد سَبْتَةَ مما يلي البحر المحيط، ومن ناحية المشرق إلى أقصى بلاد الصين، وقتل كسرى، وباد ملكه بالكلية. وفتحت مدائن العراق، وخراسان، والأهواز، وقتل المسلمون من الترك مقتلة عظيمة جدا، وخذل الله ملكهم الأعظم خاقان، وجُبي الخراج من المشارق والمغارب إلى حضرة أمير المؤمنين عثمان بن عفان ﷺ.

ثانياً: بناء دولة العقيدة على أصول أهل السنة:

كان نور الدين رجل عقيدة وكان أظهر ما في خصائصه هو إيمانه الإسلامي العميق قال عنه ابن كثير: . . كان مجاهداً في الفرنج، آمراً بالمعروف، ناهياً عن المنكر، صحيح الاعتقاد وكان قد قمع المناكر وأهلها ورفع العلم والشرع وليست الدنيا عنده بشيء رحمه الله وكان رحمه الله يملك رؤية نهوض قائمة على إحياء السنة وقمع البدعة.

قال عنه ابن كثير[15]: أظهر نور الدين ببلاده السنة وأمات البدعة وأمر بالتأذين بحي على الصلاة حي على الفلاح ولم يكن يؤذن بهما في دولتي أبيه وجده، وإنما كان يؤذن بحي على خير العمل، لأن شعار الرفض كان ظاهراً،

(١٥) البداية والنهاية (١٦/ ٤٨١).

وكان يعاقب المبتدعة بأشد العقوبات: قيل إن رجلاً أظهر شيئاً من التشبيه، فأركب على حماره، وأمر بصفعه وطيف به في البلد ونفاه إلى حرّان، وكان نور الدين يتحرى السنة في أمورها كلها ومن أعظم إنجازات دولته هو إسقاط الدولة الفاطمية وكان الفضل لله ثم للحملات المتوالية التي أرسلها نور الدين محمود حتى خلص المسلمين من شرورها وأعلن تبعيتها للخلافة العباسية السنية وكان رأي نور الدين في الدولة العبيدية الفاطمية يتلخص في رسالته للخليفة العباسي، وهو يبشره بفتح مصر وسقوط دولة الإلحاد والرفض والبدعة، يقول فيها: وطالما بقيت "٢٨٠" سنة مملؤة بحزب الشياطين. . . حتى أذن الله لغمتها بالانفراج، واجتمع فيها داءان الكفر والبدعة، وتمكنا من إزالة الإلحاد والرفض، ومن إقامة الفرض.

دور نور الدين في دعم المذهب السني:

مهدت مدارس نظام الملك رحمه الله السبيل ويسرته أمام نور الدين والأيوبيين، فأضحى الطريق معبداً لتحقيق الهدف الذي أنشئت النظاميات من أجله وهو العمل على مناهضة الفكر الشيعي ودعم المذهب السني وقد عقد نور الدين العزم على صبغ دولته بالكتاب والسنة ومواجهة الفكر الشيعي الرافضي والذي كان محصوراً في حلب ودمشق ومصر وبذل جهوداً كبيرة ليمكن لمذهب السنة إلا أن هذه الجهود كانت تختلف في طبيعتها باختلاف هذه البيئات الثلاث وإليك جهود نور الدين محمود في الأقاليم الثلاثة[16].

١ـ جهود نور الدين في حلب: أخذ نفوذ الشيعة في حلب يظهر بوضوح في أواخر أيام سيف الدولة الحمداني (٣٣٣هـ ـ ٣٥٦ هـ / ٩٤٤م ـ ٩٦٧م) لأن بني حمدان كانوا يعتنقون مذهب الشيعة الإمامية فيسروا لدعاة هذا

(١٦) التاريخ السياسي والفكري للمذهب السني (صـ٢٠٦).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

المذهب الطريق لنشر الدعوة فيها ثم عملوا بعد ذلك على إزالة شعائر السنة وإحلال شعائر الشيعة محلها، وذلك عندما غير سعد الدولة أبو المعالي (٣٥٦هـ ـ ٣٨١ هـ/ ٩٦٧م – ٩٩١ م) ابن سيف الدولة الأذان بها في عام (٣٦٧هـ/ ٩٧٧م) وزاد فيه حي على خير العمل محمد وعلي خير البشر[17]، فكان هذا مبدأ ظهور الإمامية بحلب، وما زال نفوذهم يزداد نتيجة لتعاقب بعض الأسر الشيعية على حكمها: كآل مرداس والعقيليين حتى أصبح شعار الرفض بها ظاهراً.

وإلى جانب الشيعة الإمامية وجدت قلة من الشيعة الإسماعيلية ازداد نفوذهم في حلب في عهد رضوان بن تتش الذي أمل أن ينصروه على أخيه دقاق، ويساعدوه في أخذ دمشق منه، ومن ثم بنى لهم بحلب أول دار للدعوة ودعا على منابرها للفاطميين فترة يسيرة من الزمن ومن هؤلاء وأولئك تكون مجتمع الشيعة في حلب ومعظم هؤلاء الشيعة كانوا متعصبين فقد كان المذهب الشيعي متغلغل في حلب، فقام نور الدين محمود باتخاذ خطوات سياسية واكبتها في الوقت نفسه خطوات فكرية هامة[18].

ففي رجب من عام ٥٤٣هـ/ ١١٤٨م أي بعد عامين تقريباً من استقراره في حلب رأيناه يأمر الشيعة بترك حي على خير العمل في الآذان وينكر عليهم إنكاراً شديداً جهرهم بسب صحابة رسول الله ﷺ ويحذرهم من مغبة العود إلى ما نُهوا عنه، فعظم هذا الأمر على الإسماعيلية، وأهل التشيع، وضاقت له صدورهم وهاجوا وماجوا ثم سكنوا وأحجموا

(١٧) زبدة تاريخ حلب (١/ ١٧٢).
(١٨) التاريخ السياسي والفكري للمذهب السني (صـ٢٠٧).

للخوف من السطوة النورية المشهورة، والهيبة المحذورة[19]، كما قام نور الدين بخطوة أخرى وهي: إبعاد بعض زعماء الشيعة عن حلب، ممن كان يخشى خطرهم، وكان على رأس المبعدين والد المؤرخ ابن أبي طي وواكبت هذه الخطوة السياسية خطوة فكرية هامة: وهي إنشاء مدرستين سنيتين كبيرتين: إحداهما للحنفية وهي المدرسة الحلاوية التي أنشأها نور الدين في العام ذاته ٥٤٣هـ/ ١١٤٨م وأسند التدريس فيها إلى برهان الدين أبي الحسن علي بن الحسن البلخي حيث استدعاه نور الدين من دمشق فجأ وألقى بها الدروس على الفقهاء وكان هو وتلاميذه خير عون لنور الدين في تنفيذ سياسته الرامية إلى مناهضة الشيعة ونصرة الكتاب والسنة، فيذكر بعض المؤرخين أن البلخي جلس تحت منارة المسجد وأمر بعض الفقهاء بالصعود إليها وقت الأذان وقال لهم: من لم يؤذن الأذان المشروع فألقوه من المنارة على رأسه، فأذنوا الأذان المشروع[20].

وكان المدرسة الثانية التي أنشأها نور الدين في حلب هي المدرسة النفَّريَّة النورية، وقد أنشأها (سنة ٤٤هـ/ ١١٤٩م) لتدريس المذهب الشافعي وَتولى التدريس بها قطب الدين مسعود بن محمد النيسابوري ت ٥٧٨هـ/ ١١٨٢م أحد أساتذة نظامية نيسابور، وقد كان حضر إلى دمشق في عام ٥٤٠هـ/ ١١٤٥م وأقام بها يعظ ويعلم، فأقبل عليه الناس فاستدعاه نور الدين إلى حلب وأسند إليه التدريس بهذه المدرسة ولم يكن اختيار النيسابوري لتولي الأستاذية بهذه المدرسة من قبيل المصادقة فالرجل له قدم راسخة في علوم السنة والمنطق وعلوم الكلام ويملك من القدرات العقلية والفكرية ما يمكنه من إنزال هزائم فادحة في مجال الفكر للعقيدة الشيعية

(١٩) الروضتين في أخبار الدولتين (١/ ٢٠٢).
(٢٠) التاريخ السياسي والفكري للمذهب السني (صـ٢٠٩).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الرافضية وكان نور الدين بحاجة مآسة إلى العلماء الذين تخرجوا ودرسوا في المدارس النظامية، فبيئة حلب قد دخلت في طور التجديد لمنهج أهل السنة ومحاربة التشيع الباطني المتسلح بالفلسفة للدفاع عن عقيدته[21].

أ ـ الاهتمام بالمذهب الشافعي في حلب: كان نور الدين محمود يتبع مذهب الإمام أبي حنيفة إلا أنه أنشأ للشافعية في حلب ثلاث مدارس هي: النفرية والعصرونية والشعيبية وأسند الأولى إلى أستاذ من أساتذة النظاميات، والثانية إلى تلميذ من أنبغ من خرجت نظامية بغداد وهو شرف الدين بن أبي عصرون، وفي الوقت الذي لم ينشئ فيه لأهل مذهبه إلا مدرسة واحدة وهي الحلاوية السالفة الذكر. لاعتقاده بأن علماء المدارس النظامية لهم القدرة على الإحياء السني، وقمع شبهات المبتدعة من الشيعة الرافضة أكثر من غيرهم وذلك بسبب خبرة المدارس النظامية وخريجيها على مواجهة المد الباطني الشيعي وقدرتها على كشف باطلها بأسلوب علمي رصين إضافة إلى اهتمام المدارس النظامية بنشر العلم الشرعي والإحياء السني الكبير ولئن البيئة الحلبية تحتاج إلى ذلك النوع من علماء أهل السنة والذي يقوي هذا المذهب أن نور الدين لم يسلك سبيلاً مشابهاً لهذا المسلك في دمشق بعد أن استولى عليها، إذ كانت حفاوته بمدارس الحنفية أكثر، فأنشأ فيها أشهر مدارسه وهي: النورية الكبرى، كما بنى للحنفية مدرسة أخرى بجامع القلعة عرفت بالنورية الصغرى وأما الشافعية فإنه أسس لهم مدرستين أو ثلاثاً على خلاف بين المؤرخين ويبدو أن مدينة حلب كانت في حاجة ماسة إلى جهود أهل السنة من المذهب الشافعي المسلحين بدراسة الجدل وعلم الكلام ليواجهوا الشيعة مواجهة فكرية تشد من أزر المواجهة السياسية لذا رأينا نور الدين يكثر من بناء مدارس الشافعية لحلب ويستقدم لها نوعية خاصة من الأساتذة ليتولوا مهمة

(٢١) السابق نفسه.

التدريس بها والإشراف عليها، وهذا ما لم يحفل به كثيراً في دمشق حيث النفوذ السني غالب، فصرف همته إلى العناية بفقهاء مذهبه، والاهتمام بدار الحديث الشريف التي أنشأها[22].

ب ـ الاستفادة من جهود علماء السنة: لم تقف جهود نور الدين في حلب عند حد العناية بإنشاء المدارس الحنفية والشافعية، بل إنه كان حريصاً على أن يستفيد من جهود علماء السنة على اختلاف مذاهبهم في محاربة الفكر الشيعي، والتمكين لمذهب السنة ولذلك كان يعتني أيضاً بعلماء المالكية والحنابلة وفقهائهم، فأوقف زاويتين بالمسجد الجامع في حلب، وخصص إحداهما لفقهاء الحنابلة والأخرى للمالكية وبذلك نجح نور الدين في التخفيف من حدة الصراع المذهبي بين المذاهب السنية المختلفة وتوحيدها في جبهة واحدة ووفقه الله في توحيد جهود علماء السنة لمحاربة الفكر الشيعي[23].

ج ـ دعم التصوف السني: اهتم نور الدين بإنشاء خوانق الصوفية وكانت في ذلك العصر مكاناً للعبادة وقد أصبح التصوف السني في ذلك العصر اتجاه له نفوذه وسيطرته وتقديره على المستوى الرسمي والشعبي وسيأتي الحديث بإذن الله عن دور المدرسة القادرية في توعية عوام الأمة خصوصاً في عاصمة الخلافة وجهود الغزالي ومحاولته تنقية التصوف من كثير من الشوائب وأن يمزج بينه وبين الشريعة مزجاً تاماً، فقد كان الصوفية في ذلك العصر محل تدير الحكام واحترامهم وخاصة نورالدين الذي كان يستفيد منهم في الدعاء وجمع المعلومات على الأعداء، وفي الجهاد، وكان يرحب بهم في بلاطه ويتواصل مع شيوخهم ويبني لهم الخوانق في أنحاء مملكته، وكان نصيب حلب من جهوده في هذا المجال خوانق: اثنتان منها للرجال وواحدة للنساء واستطاعت الدولة

(٢٢) المصدر السابق (صـ٢١١).
(٢٣) الحياة العلمية في العهد الزنكي (صـ٨٧).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

النورية التأثير على التصوف السني، وساهم التصوف السني في محاربة الدولة الفاطمية ومدّ نفوذه في أنحاء بلاد الشام ومصر مع توسع الدولة النورية خارجياً والتي كانت من وسائلها دعم التصوف السني لمقاومة المذهب الإسماعيلي والتيار الفلسفي، وقد مدت مقاومتها إلى مصر أيضاً ولذا كان اتساع نطاق الاتجاه الصوفي على مستوى قطاعات جماهيرية كبيرة فيما بعد في عهد الأيوبيين والمماليك[24].

د ـ دور تدريس الحديث: اهتم نور الدين محمود بتدريس الحديث الشريف وكانت من ضمن مشروعه في حركة الإحياء السني ومناهضة الفكر الشيعي، ذلك أن الشيعة لا يعترفون بصحة الحديث إلا إذا كان مروياً عن آل البيت وكان من الطبيعي أن ينتهي بهم هذا الموقف ـ المجانبة للحق والعدل والصواب ـ إلى الطعن في صحاح السنة ويضاف إلى ذلك أن العناية بالحديث الشريف وتشييد معاهد دراسية خاصة به كان سمة من سمات هذه الفترة التي حكم فيها نور الدين والأيوبيون، ذلك أن الظروف التي أحاطت بالشام ومصر في تلك المرحلة عكست ظلالها على مناهج الدراسة في المعاهد العلمية السنية من أثر ذلك العناية بالحديث وعلومه استجابة لظرف واقعي تمثل في احتلال الصليبيين لأجزاء واسعة من بلاد الشام من بينها القدس الشريف، فكان على هذه المدارس أن تعبئ الناس للجهاد وتحين فيهم روح البطولة والاستشهاد عن طريق تدريس الحديث والعناية به خاصة ما يتعلق منه بباب الجهاد في سبيل الله، ولذا رأينا نور الدين يوقف زاوية بجامع حلب على دراسة الحديث، كما أوقف داراً أخرى للغرض ذاته هذه هي أبرز الجهود التي نهض بها نور الدين لدعم المذهب السني بها[25].

(٢٤) فن الصراع الإسلامي الصليبي (صـ١٨٥).
(٢٥) التاريخ السياسي والفكري للمذهب السني (صـ٢١٢).

س ـ موقف الشيعة في حلب من حركة الإحياء السنية: لم يتقبل الشيعة الجهود التي نهض بها نور الدين في حلب لدعم المذهب السني بها وظلوا ينتهزون الفرصة المواتية ليعودوا بحلب مرة أخرى إلى ما كانت عليه بيئة شيعية يمارسون فيها شعائرهم بحرية تامة وكانت محاولتهم الأولى في هذا السبيل عام ٥٥٢هـ/ ١١٥٧م عندما مرض نور الدين بحلب حتى أرجف بموته ووصل أخوه نصرة الدين إلى حلب ليخلفه في ولايته، فمنعه والي القلعة من الدخول إليها، فتجمع حوله أحداث الشيعة وأبدوا استعدادهم لنصرته شريطة أن يسمح لهم بالعودة إلى ممارسة شعائرهم التي أبطلها نور الدين، فوعدهم بذلك، واشتعلت نيران الفتنة بين السنة والشيعة وقام الأخيرين بنهب بعض المراكز التعليمية السنية كالمدرسة العصرونية وغيرها من دور أهل السنة، ولما علم نور الدين بالأمر أرسل إلى قاضي المدينة أبي الفضل هبة الله بن أبي جرادة بأن يمضي إلى الجامع ويصلي بالناس، ويعاد الأذان إلى ما كان عليه فشرع المؤذنون في الأذان السني فاجتمع تحت المنارة من عوام الشيعة خلق كثير، فخرج إليهم القاضي وحذرهم وبين لهم أن نور الدين قد عوفي وأنه هو الذي أمر بهذا فانصرفوا وسكتت الفتنة[26].

و ـ وجاءت محاولتهم الثانية في شوال من عام ٥٦٤هـ/ ١١٦٩م عندما أحرق الإسماعيلية مسجد حلب الجامع وكان يتخذ مكانا للدرس إلى جانب العبادة، فكان فيه الكثير من الزوايا التي وقفها نور الدين على المالكية والحنابلة وعلماء الحديث، فأعاد نور الدين بناء الجامع ووسعه وخصص له أوقافاً كثيرا، ولعل الحركة من جانب الإسماعيلية في حلب كانت رد فعل لاستيلاء نور الدين على مصر الفاطمية في ربيع الآخر من هذا العام، إذ أيقن الإسماعيلية أن نور الدين ماض في تضييق الخناق على الشيعة وأنه عازم على

(٢٦) زبدة حلب (٢/ ٣٠٨: ٣١٠)، التاريخ السياسي (صـ٢١٣).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

استئصال هذا المذهب من مصر والشام[27] كانت خطوات نور الدين العقائدية في حلب خطوات مدروسة تدل على وعي وإدراك كاملين للهدف الذي يريد تحقيقه من وراء إنشاء هذه المؤسسات السنية الهادفة، وظهر هذا الوعي واضحاً من جانب نور الدين عندما تحدث مجد الدين ابن الداية بلسانه إلى الفقهاء في حلب قائلاً: نحن ما أردنا ببناء المدارس إلا نشر العلم، ودحض البدع من هذه البلدة وإظهار الدين كما كان نور الدين ـ رحمه الله ـ يدرك قيمة العلم سلاحاً يواجه به العدو كما يواجهه بالقوة العسكرية، ولا شك أن نور الدين في هذه النظرة كان يعيش في عصره بعقلية العصر الذي يعيشه الآن، فالتصدي للغزو الباطني الحديث يحتاج لقوة عسكرية واقتصادية وسياسية، وفكرية وإعلامية تتوازن وتتعاون وتتكامل مع بعضها من أجل الإحياء السني في الأمة والوقوف أمام العقائد الباطنية الزاحفة.

وقد أثمرت جهود نور الدين في حلب وتسابق أمراءه وأعيان دولته وخلفاؤه من بعده إلى إنشاء المؤسسات العلمية حتى غدت حلب بعد فترة يسيرة نسبياً مركزاً من مراكز الثقافة السنية بعد أن كانت وكراً من أوكار الشيعة وقد أحصى المؤرخ عز الدين شداد ت ٦٨٤هـ/ ١٢٨٥م مدارس حلب في أيامه فوجدها أربعاً وخمسين مدرسة موزعة بين المذاهب الفقهية الأربعة منها: إحدى وعشرون للشافعية، واثنتان وعشرون للحنفية، وثلاث للمالكية والحنابلة، وثماني دور للحديث الشريف بالإضافة إلى إحدى وثلاثين خانقاه للصوفية[28] وقد أتت هذه المؤسسات العلمية ثمارها المرجوة إذا انقرض المذهب الإسماعيلي الباطني في حلب في حدود عام ٦٠٠هـ/ ١٢٠٣م وأخفى الشيعة الإمامية معتقداتهم حتى انتهى بهم الأمر إلى أن آخذو يتنكرون وبأفعال

(٢٧) التاريخ السياسي (صـ٢١٣).
(٢٨) السابق (صـ٢١٤).

السنة يتظاهرون ويذكر أحد المؤرخين المعاصرين من أبناء حلب: أن الشيعة انقرضوا من المدينة وتلاشوا بالمرة، ولم يبق منهم غير عدة بيوت يقذفهم بعض الناس بالرفض والتشيع، مع أن ظاهرهم على كمال الاستقامة وموافقة السنة وذلك بفضل الله ثم جهود المصلح الكبير نور الدين وخلفائه الذين اقتدوا به في الإكثار من المدارس السنية وتعيين الأساتذة الأكفاء لها، والإنفاق عليها بسخاء حتى تراجع التشيع من هذه المدينة وأصبحت السيادة فيها لمذهب أهل السنة وهذا يدل على أهمية التربية الفكرية والثقافية في التمكين للإسلام الصحيح في نفوس الناس[29].

٢ـ جهود نور الدين في الإحياء السني في دمشق: استولى نور الدين على دمشق في صفر من عام ٥٤٩هـ/ ١١٥٤م ومن ثم واصل جهوده لتنفيذ خطته في دعم العقيدة السنية وكان منهجه في دعم المذهب السني في دمشق قد خضع لزيادة في أعبائه العسكرية حيث أصبح مجاوراً لمملكة بيت المقدس أكبر المراكز الصليبية قوة وأخطرها شأناً ولذا فإن المنهج الذي سلكه نور الدين في دعم المذهب السني قصد إلى مواجهة هذه الحالة من ناحية ومن ناحية أخرى لابد أن تصبح دمشق بمثابة مركز إشعاع عقائد تنطلق منه جهود علماء السنة للقضاء على المذاهب المنحرفة وتمهيد الطريق لسيطرة المذهب السني ـ الذي كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه ـ ولذلك رأينا خطة نور الدين في دمشق تسير في ثلاث اتجاهات رئيسية[30]:

الاتجاه الأول: تركز في العناية بإنشاء المدارس السنية وربط الصوفية، غير أن مدارسه في دمشق اهتمت بفقهاء المذهبين: الحنفي والشافعي، وكانت عناية نور الدين بمدارس الفريق الأول أكثر، استجابة لميل طبيعي إلى هذا المذهب

(٢٩) السابق نفسه.
(٣٠) السابق (صـ٢١٥).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الذي كان يعتنقه دون تعصب، فأنشأ المدرسة النورية الكبرى، وجلعها وقفاً على الحنفية وأول من درس بها شيخ الحنفية بدمشق: بهاء الدين بن عسكر المعروف بابن العقادة ت (٥٩٦ هـ/ ١١٩٩م) ووصف ابن جبير هذه المدرسة عندما زارها في عام ٥٨٠هـ/ ١١٩٩م بأنها " من أحسن مدارس الدنيا منظراً. . وهي قصر من القصور الأنيقة[31]، كما جعل لهم مدرسة أخرى بجامع القلعة وهي المدرسة النورية الصغرى[32] وأما المدارس الشافعية التي نسب إنشاؤها إلى نور الدين فآراء مؤرخي المدارس متضاربة حولها، ومع عناية نور الدين بتشييد المدارس التي تعني بتراث الإمامين العظيمين فإنه لم يهمل أصحاب المذهبين الآخرين إهمالاً تاماً، بل وقف على زاوية المغاربة وهم مالكية بالجامع الأموي ما يعينهم على تحصيل العلم ويوفر لهم حياة كريمة[33]، وواصل نور الدين في دمشق سياسته التي اتبعها في حلب تجاه الصوفية فشيد لهم ـ خانقاه ـ خارج المدينة وصفها ابن جبير بقوله: ومن أعظم ما شاهدناه لهم (الصوفية) موضع يعرف بالقصر، وهو صرح عظيم، مستقل في الهواء، في أعلاه مساكن لم ير أجمل إشراقاً منها[34]، كما عين لهم نور الدين من ينظر في أمر ربطهم وزواياهم، وأسند هذه المهمة إلى شيخ الشيوخ أبي الفتح عمر بن علي بن حمويّة[35].

وأما الاتجاه الثاني: فكان منصباً على العناية بالحديث الشريف دراسة وتدريساً، ومن ثم بنى أكبر دار للحديث في دمشق، ووكل أمر مشيختها إلى أحد أعلام عصره، وهو الحافظ الكبير: تقي الدين أبو القاسم علي ابن

(٣١) رحلة ابن جبير (صـ٢٣١).
(٣٢) الدارس في تاريخ المدارس (١/ ٦٤٨).
(٣٣) رحلة ابن جبير (صـ٢٣١).
(٣٤) التاريخ السياسي (صـ٢١٦).
(٣٥) مرآة الزمان (٨/ ٢٧٢).

الحسين بن هبة الله بن عساكر ت (٥٧١هـ/ ١١٧٥م) وكان عمدة في الحديث والفقه وعلم الكلام، وصفه ابن خلكان بأنه: من أعيان الفقهاء والشافعية ولكن غلب عليه الحديث فاشتهر به[36].

وهذه العلوم الثلاثة: أعني الحديث والفقه، وعلم الكلام، كانت تدخل من ضمن الثقافة السنية في تلك الفترة ولذلك قربه نور الدين منه وادناه من مجلسه واستمع إليه وفوض إليه القيام بمهمة الإشراف والتدريس بدار الحديث النورية وعناية نور الدين بالحديث الشريف ـ على هذا النحو ـ تعبر عن إدراك تام لقيمة الدور الذي تؤديه العناية بهذا الجانب: من تهيئة الناس وإعدادهم للجهاد في سبيل الله وحثهم عليه في بيئة تواجه باستمرار خطر العدو الذي يحتل مقدسات المسلمين ويتربص بهم الدوائر، كما أن هذه الحفاوة بالحديث الشريف تعكس لنا ميل نور الدين إلى هذا الفرع من فروع الثقافة السنية ؟ فقد شارك العلماء في هذا الميدان فحدث بحلب ودمشق عن جماعة من العلماء أجازوا له رواية الحديث منهم: أبو عبد الله بن رفاعة بن غدير السعدي المصري[37].

الاتجاه الثالث: كان موجهاً إلى العناية بتربية النشء تربية سنية فإن نور الدين بني في دمشق وغيرها من البلاد مكاتب للأيتام وأجرى عليهم وعلى معلميهم النفقات الوفيرة، كما خصص للأيتام الذين يقرءون القرآن ـ بالمساجد التي شيدها ـ أوقافاً ـ معلومة[38].

(٣٦) وفيات الأعيان (٢/ ٤٧١ : ٤٧٣). (٢) الباهر (صـ١٦٥). (٣) السابق (صـ١٧٢). (٤) البداية والنهاية (١٦/ ٤٨١).
(٣٧) الباهر (صـ١٦٥).
(٣٨) السابق (صـ١٧٢).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يذكر ابن كثير : أن نور الدين وقف وقفاً : على من يعلم الأيتام الخط والقراءة، وجعل لهم نفقة وكسوة[39] .

وخصص نور الدين لهذه المؤسسات التعليمية ـ على اختلاف أنواعها ـ الأوقاف الكثيرة التي تمكن طلابها وأساتذتها من التفرغ لتعلم العلم وتعليمه حتى إن ابن الأثير ذكر أنه بلغه من خبير بأعمال الشام أن وقوف نور الدين كانت تغل في عام ٦٠٨هـ/ ١٢١١م تسعة آلاف دينار كل شهر، لذلك لن نعجب إذا وجدنا من يصف بلاد الشام بأنها كانت قبل نور الدين خالية من العلم وأهله، وفي زمانه صارت مقراً للعلماء والفقهاء والصوفية لصرف همته إلى بناء المدارس والربط وترتيب أمورهم ويصور أحد الشعراء المعاصرين لنور الدين وهو علي بن منصور أبو الحسن السروجي ٥٧٢هـ/ ١١٧٦م النهضة الفكرية في عهده بقوله في وصف دمشق :

كأنها جنة الخلد دانية ... قصورها فتحت منها المقاصير
في كل قطر بها للعلم مدرسة ... وجامع جامع للدين معمور
يتلى القرآن به في كل ناحية ... والعلم يذكر فيه والتفاسير
تكامل الحسن فيه مثل ما كملت ... أوصاف مولى بنشر العدل مشهور
الملك والدين والدنيا بأجمعها ... وللخليفة من أنواره سور

٣ـ دور نور الدين في إعادة مصر إلى المعسكر السني : لم يقدر لنور الدين أن يحكم مصر حكماً مباشراً، ومن ثم لم تتهيأ له الفرصة ليقيم فيها مؤسسات فكرية تعمل على تغيير الاتجاه الشيعي في هذا الإقليم ـ وتنتشله من مستنقع البدع والضلال ـ وتعيده إلى رحاب السنة مرة أخرى، فالمؤسسات العقائدية

(٣٩) البداية والنهاية (١٦/ ٤٨١).

السنية التي قامت في مصر حسبت كلها في رصيد الأيوبيين، حتى ما أنشئ منها في حياة نور الدين وكان له فيها أثر غير مباشر، ذلك أن الأيوبيين قدر لهم يستمروا في قيادة الإحياء السني في مصر بعد وفاته، فنسبت معظم الجهود ـ إن لم يكن كلها ـ إليهم. ولكنا مع هذا لا يسعنا إلا أن نقرر الحقيقة وهي أن الأيوبيين كانوا تلاميذ نور الدين في هذا الاتجاه، فما ينسب إليهم لا بد أن نلمس فيه أثره، ونلمح فيه توجيهاته، وذلك علاوة على الدور الكبير الذي قام به في إعادة مصر إلى المعسكر السني، والسؤال الذي يطرح نفسه الآن هو : في أي الجوانب إذن تركز دور نور الدين في تحويل مصر إلى هذه الوجهة[40]؟

يذكر المقريزي[41] : أن الخليفة لأمر الله العباسي انتهز فرصة الاضطرابات في مصر عقب مقتل الخليفة " الظافر " في المحرم سنة ٥٤٩هـ/ ١١٥٤م وتولية ابنه : " الفائز " وكان طفلاً صغيرا، فأرسل إلى نور الدين يطلب منه أن ينتهز هذه الفرصة ويزحف على الساحل الشامي ومصر ويأخذها من أيدي الفاطميين وكتب له بهما عهداً. كما ذكر هذه الرواية بشيء من التفصيل السيوطي في حسن المحاضرة، ويفهم من الروايتين أن الخليفة المقتفي هو الذي وجه نظر نور الدين إلى مصر وأنه شجعه على ذلك وأن توجيه الخليفة كان نقطة البداية في محاولة استعادة مصر إلى المعسكر السني[42] . ولا نستطيع أن ننكر الجهود الكبيرة التي قام بها الخليفة المقتفي ووزيره يحي بن هبيرة في دعم مسيرة نور الدين إلا أن الاهتمام بمصر بالنسبة لنور الدين اختيار استراتيجي في خطته لتضييق الخناق على الصليبيين في بيت المقدس، كما أدرك من قبل أهمية ضم دمشق بالنسبة لهذا الأمر الحيوي وهذا الحقيقة عبر عنها نور الدين بنفسه في إحدى عباراته عندما أرسل إليه صلاح الدين ـ من مصر ـ هدايا وتحفا

(٤٠) التاريخ السياسي (صـ٢١٨).
(٤١) حسن المحاضرة (٢/ ٣)، اتعاظ الحنفا (٣/ ٢٢٣).
(٤٢) التاريخ السياسي (صـ٢١٩).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فقال: والله ما قصدنا بفتح مصر إلا تطهير الساحل وقلع الكفار منه وكلمة تطهير الساحل لعلمه أهمية الهيمنة البحرية للمعسكر السني لكي يطهر البيت المقدس وبلاد الشام من الصليبيين، فحركة الإمدادات من غرب أوروبا، تحتاج لحشد قوى العالم الإسلامي، مع قطع الإمدادات أو مضايقتها عن الصليبيين في بلاد الشام، وهذا لا يكون إلا بضم مصر وتخليصها من أيدي الروافض الباطنيين الذين تقلدوا أمور حكمها من قرون كما أن نور الدين محمود زنكي رجل تركي سني، وهو على أي حال امتداد للسلاجقة الذين تمنوا فتح مصر وإعادتها إلى دائرة النفوذ السني، لذا كان من الطبيعي أن يأتي تفكيره في فتح مصر نابعاً من ذاته ومتمشياً مع متطلبات ظروفه العسكرية من ناحية، ومحققاً لأمانيه الدينية من ناحية أخرى ومما يشير إلى أن فتح مصر كان هدفاً من أهداف نور الدين التي سعى لتحقيقها قوله في الرسالة التي بعث بها إلى الخليفة المستضيئ يبشره بإقامة الخطبة له في مصر: ما برحت هممنا إلى مصر مصروفة وعلى افتتاحها موقوفة، وعزائمنا في إقامة الدعوة الهادية بها ماضية... حتى ظفرنا بها بعد يأس الملوك منها، كما كشف في هذه الرسالة عن موقفه العقدي من الفاطميين بقوله عن مصر: ... وبقيت مائتين وثمانين سنة ممنوعة بدعوة المبطلين مملوة بحزب الشياطين حتى أذن الله لغمتها بالانفراج، وأقدمنا على ما كنا نؤمله من إزالة الإلحاد والرفض، وتقدمنا إلى من استبناه أن يستفتح باب السعادة، ويقيم الدعوة العباسية هنالك ويورد الأدعياء ودعاة الإلحاد بها المهالك.

ولهذا كله كان من الطبيعي أن ينتهز نور الدين الفرصة التي سنحت له للتدخل في شؤون مصر عندما اضطربت أحوالها الداخلية بسبب التنافس بين الوزراء، وطمع الصليبيين فيها، فثابر على إرسال جيشه إليها كلما دعت الضرورة إلى ذلك حتى تّم الاستقرار لهذا الجيش بها في المرة الثالثة وذلك في ربيع الآخر سنة ٥٦٤هـ/ ١١٦٩م ووزر قائدة أسد الدين شيركوه للخليفة

العاضد في مصر، لكنه ما لبث أن توفي وخلفه في منصبه ابن أخيه صلاح الدين الذي كان عليه أن يبدأ بتنفيذ خطة نور الدين لإعادة مصر إلى حظيرة السنة، ثم يتابع المسيرة بعد وفاة أستاذه العظيم[43].

خطة نور الدين في بداية فتح مصر:

كانت خطة نور الدين في بداية فتح مصر تركز على أمرين هامين:

الأول: تغيير النظام القضائي بها بحيث يعتمد على مذهب السنة بدلاً من المذهب الشيعي الإسماعيلي الباطني، وحاول نور الدين أن يكل هذا الأمر إلى الفقيه الشافعي شرف الدين بن أبي عصرون، يذكر أبو شامة أنه وقف على كتاب بخط نور الدين إلى هذا الفقيه.

ونص رسالته كما جاءت، هي:

حسبي الله وكفى. وفق الله الشيخ الإمام شرف الدين لطاعته وختم له بخير. غير خاف عن الشيخ ما أنا عليه وفيه، وكل غرضي ومقصودي في مصالح المسلمينً، وما يقربني إلى الله، والله ولي التوفيق، والمطلع على نيتي. وأنت تعلم نيتي كما قال ﷻ: M . . . - . / 0 L (الرعد: ٤٣). أنت تعلم أن مصر اليوم قد لزمنا النظر فيها، فهي من الفتوحات الكبار، التي جعلها الله تعالى دار إسلام بعد ما كانت دار كفر ونفاق؛ فلله المنة والحمد. إلا أن المقدم على كل شئ أمور الدين التي هي الأصل، وبها النجاة؛ وأنت تعلم أن مصر وإقليمها ما هي قليلة، وهي خالية من أمور الشرع، وما تُدخر الدموع إلا للشدائد، وأنا ماكنت أسخى ولا أشتهي مفارقتك. والآن فقد تعين عليك وعليّ أيضاً أن ننظر إلى مصالحها، وما لنا أحد اليوم لها إلا أنت، ولا أقدر أولي أمولها ولا أقلدها إلا لك حتى تبرأ ذمتي عند الله. فيجب

(٤٣) التاريخ السياسي (صـ٢٢٠).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

عليك، وفقك الله، أن تشمر عن ساق الاجتهاد وتتولى قضاءها، وتعمل ما تعلم أنه يقربك إلى الله. وقد برئت ذمتي، وأنت تجاوب الله. فإذا كنت أنت هناك وولدك أبو المعالي، وفقه الله، فيطيب قلبي وتبرأ ذمتي. وقد كتبت هذا بخطي حتى لا يبقى عليّ حجة. تصل أنت وولدك عندي حتى أسيركم إلى مصر والسلام. بموافقة صاحبي واتفاق منه صلاح الدين، وفقه الله، فأنا منه شاكر كثير كثير، جزاه الله خيراً وأبقاه، ففي بقاء الصالحين والأخيار صلاح عظيم، ومنفعة لأهل الإسلام. الله تعالى يكثر من الأخيار وأعوان الخير، وحسبنا الله ونعم الوكيل. وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليمًا.

وكان بحلب يطلب منه الذهاب إلى مصر ليتولى قضاءها ومما قاله نور الدين للشيخ: أنت تعلم أن مصر اليوم قد لزمنا النظر فيها، فهي من الفتوحات الكبار التي جعلها الله دار إسلام بعد أن كانت دار كفر ونفاق.. إلا أن المقدم على كل شيء أمور الدين التي هي الأصل، وبها النجاة، وأنت تعلم أن مصر ما هي قليلة، وهي خالية من أمور الشرع.. والآن قد تعين عليك وعلي أيضاً أن ننظر إلى مصالحها، وما لنا أحد اليوم لها إلا أنت.. فيجب أن تشمر عن ساق الاجتهاد، وتتولى قضاءها، وتعمل ما تعلم أنه يقربك من الله[44].

والأمر الثاني: كان يتعلق بإقامة الخطبة العباسية في مصر فما أن استقرت عساكر نور الدين فيها حتى وردت عليه رسالة من الخليفة المستنجد يتعجل إقامة الخطبة له في مصر، ثم لما ولي "المستضيئ" في عام ٥٦٦هـ/ ١١٧٠م كرر هذا الطلب، وكان نور الدين بدوره يطلب من صلاح الدين الإسراع في تنفيذ هذه الخطوة. لكن صلاح الدين كان يؤثر اتخاذ خطوات متدرجة حتى لا

(٤٤) التاريخ السياسي (صـ٢٢٠).

يواجه بما لا تحمد عقباه إلى أن ألزمه نور الدين بذلك إلزاماً لا فسحة فيه في رسالة أرسلها إليه مع والده نجم الدين أيوب، فاعتذر لأبيه بأن هذا الأمر إن لم يؤخذ بالتدرج فسيؤل أمره إلى الفساد وفعلاً كان صلاح الدين يسير نحو رغبة نور الدين بخطوات متأنية، استطاع بعدها أن يقطع خطبة العاضد الفاطمي، ويخطب للخليفة العباسي في المحرم من عام ٥٦٧هـ/ ١١٧١م وما لبث العاضد أن توفي بعد أيام من الدعاء للعباسيين على منابر مصر وبموته سقطت الدولة الفاطمية[45]، وأرسل نور الدين القاضي ابن أبي عصرون إلى الخليفة العباسي يحمل راسلة تتضمن البشارة بهذا الحادث الكبير، وأمره نور الدين أن يقرأ البشارة في كل مدينة يمر بها، فلم يترك مدينة في الطريق إلى بغداد إلا دخلها، وقرأ فيها هذه البشارة، حتى وصل إلي عاصمة الخلافة، فخرج الموكب لتلقيه، ونثرت عليه الدنانير، وحمل معه عند عودته التشريفات والخلع من الخليفة إلى نور الدين وصلاح الدين.

وبذلك قدر لمصر أن تعود إلى رحاب السنة في عهد نور الدين الذي تركزت جهوده في هذا المجال حول ثلاثة جوانب: الفتح العسكري الذي مهد الطريق أمام التحول السني، وتغيير النظام القضائي من المذهب الإسماعيلي الشيعي إلى المذهب الشافعي السني، ثم إسقاط الخلافة الفاطمية وإقامة الخطبة للخلافة العباسية السنية.

وإذا كانت معظم جهود نور الدين الفكرية قد وزعت بين حلب ودمشق ومصر فإن هذا لا يعني إهمال بقية المناطق الخاضعة لنفوذه، بل إنه أنشأ المدارس السنية في كثير منها، وشيد عدداً كبيراً من المساجد التي كانت مهيأة للعبادة والدرس، فبنى للفقيه ابن أبي عصرون مدارس في حلب وحمص

(٤٥) السابق (صـ٢٢١).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وبعلبك[46]، ويقول ابن خلكان عن نور الدين إنه بنى المدارس بجميع بلاد الشام مثل: دمشق وحلب، وحماة، وحمص، وبعلبك، ومنيح والرحبة، وبنى بمدينة الموصل الجامع النُّوري، ورتب له ما يكفيه، كما بنى جامع حماة وجامع الرها، وجامع منبج[47].

٤ـ عوامل نجاح نور الدين في تحقيق برنامجه الإصلاحي أن جهوده جاءت تالية لجهود المدارس النظامية، فانتفع بما حققته من نتائج وفي مقدمتها تخريج جيل يحمل على عاتقه مهمة الدعوة للمذهب السني، والانتصار له. وقد استفاد نور الدين من عدد كبير تخرجوا من النظاميات يأتي الحديث عنهم لاحقاً بإذن الله تعالى واستطاع نور الدين أن يستغل بذكاء مواهب العلماء البارزين في عصره ويستعين بهم في دعم المذهب السني وكانت شخصيته من أهم العوامل التي ساعدته على النجاح في المهمة التي سعى لتحقيقها، فمن أبرز صفاته أنه كان يثق بالعلماء ثقة مطلقة ولا يسمح لأحد أن يتناول واحدا منهم بمقالة سوء، فازدادت منزلة العلماء سموا وأصبحوا محل ثقة جمهور المسلمين وتقديرهم كما كان يحرص على حضور مجلس العلم كلما سمحت له ظروفه بهذا ويواظب على عقد مجالس الوعظ، ويستمع ـ مع الناس ـ للحافظ ابن عساكر ولقطب الدين النيسابوري، وغيرهما من الوافدين على دمشق من أنحاء العالم الإسلامي، كان نور الدين كقائد سياسي وعسكري على قناعة راسخة بالخطورة العظيمة التي يمثلها المد الشيعي الرافضي في سبيل نهوض الأمة والاستمرار في المقاومة الصليبيين ولذلك جعل من أهدافه القضاء على الدولة الفاطمية التي ترعى الفكر الشيعي الرافضي والعمل على التصدي لدعاة التشيع الرافضي بالفكر، والعلم والثقافة والسياسة والقوة.

(٤٦) الدارس في تاريخ المدارس (١/ ٤٠١).
(٤٧) وفيات الأعيان (٤/ ٢٧٢).

وقد تحدثنا عن شخصية نور الدين وأهم صفاته في مبحث مستقل، فقد كان سلوك نور الدين محمود زنكي من عوامل انتصار المذهب السني، لئن أبرز ما كان يتبجح به الشيعة في الدعوة إلى مذهبهم هو التنديد بمسلك حكام السنة المنغمسين في ترفهم، اللاهين في ملاذهم وشهواتهم، الغارفين في مظالمهم، وكانت النغمة السائدة لدى دعاتهم: أن الإمام المهدي (القائم أو الغائب) سيملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً، يستدرجون بهذا المحرومين والمسحوقين حتى يجذبونهم إلى صفوفهم، ويدخلونهم في دعوتهم، فجاء نور الدين يدعم المذهب السني بأخلاقه وسلوكه، وحسن سياسته في رعيته، ثم بجهوده الفكرية الرائعة[48].

إن نور الدين محمود أيقن بأن العقيدة التي تصلح لجمع شتات المسلمين هي ما كان منبعها كتاب الله وسنة رسوله ويمكن التدليل على كل أصل من أصولها أو جزئية من جزئياتها ثم إن السلف الصالح الذين استقاموا على عقيدة الإسلام الحق دوَّنوا هذه العقيدة تدويناً ميزها عن عقائد أهل الفرق والضلال، فلذلك عمل على معرفتها وتعليمها وتربية الناس عليها من خلال جهاز العلماء في الدولة، فالطريق للنهوض لابد فيه من وحدة الصف ووحدة الصف ليس لها من سبيل إلا الإسلام الصحيح والإسلام الصحيح مصدره القرآن والسنة، والطريق لفهم القرآن والسنة هي طريق رسول الله ﷺ وأصحابه الكرام، والتابعين بإحسان، ومن سار على نهجهم وطريقتهم إلى يوم الدين.

(٤٨) التاريخ السياسي (صـ٢٢٥).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

قال تعالى: M ! " # $ % & ' ( ) * + , - . . . L (التوبة: ١٠٠) فوعد من اتبع غير سبيلهم بعذاب جهنم، ووعد متبعهم بالجنة والرضوان[49].

وقال رسول الله ﷺ: خير الناس قرني ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم يجيء قوم تسبق شهادة أحدهم يمينه ويمينه شهادته. وعن ابن مسعود ﷺ قال: اتبعوا ولا تبتدعوا، فقد كفيتم وعنه ﷺ: من كان متأسياً فليتأسى بأصحاب رسول الله، فإنهم كانوا أبر هذه الأمة قلوباً وأعمقها علماً، وأقلها تكلفاً، وأقومها هديا وأحسنها حالاً، قوم اختارهم الله لصحبه نبيه، وإقامة دينه فاعرفوا لهم فضلهم واتبعوهم في آثارهم، فإنهم كانوا على الهدي المستقيم. ولذلك حرص الملك العادل على بناء دولة العقيدة على أصول منهج أهل السنة والجماعة.

ثالثاً: العدل في دولة نور الدين محمود زنكي:

إن من أهداف الحكم الإسلامي الحرص على إقامة قواعد النظام الإسلامي التي تساهم في إقامة المجتمع المسلم ومن أهم هذه القواعد العدل قال تعالى: M K L M N O . . . L (النحل: ٩٠). وأمر الله بفعل كما هو معلوم يقتضي وجوبه وقال تعالى: M © ª « ¬ ® ¯ ° ± ² ³ ´ µ ¶ ¸ ¹ º » ¼ ½ ¾ ¿ À Á Â Ã Ä Å Æ Ç È É Ê Ë Ì Í Î Ï Ð Ñ Ò Ó Ô Õ Ö × Ø Ù Ú Û Ü Ý Þ ß à á â ã ä å æ ç è é ê ë ì í L (النساء: ٥٨).

وقال تعالى: M " # $ % & ' ( ) * + , - . / 1 2 3 4 5 6 7 8 : ; < = > @ A B C D E F G H I L (النساء: ١٣٥).

وقال رسول الله ﷺ: أشد الناس يوم القيامة عذاباً إمام جائر والعدل أساس الحكم، وإقامته بين الناس في الدين الإسلامي تعدُّ من أقدس الواجبات، وأهمّها، وقد اجتمعت الأمة على وجوب العدل[50].

ولقد كان نور الدين محمود زنكي قدوة في عدله، أسر القلوب، وبهر العقول، فقد كانت سياسته تقوم على العدل الشامل بين الناس وقد نجح في ذلك على صعيد الواقع والتطبيق نجاحاً منقطع النظير، حتى اقترن اسمه بالعدل وسمي بالملك العادل، وكان من أسباب نصر الله لهذا الملك العادل على الباطنية، والصليبيين إقامته للعدل في الرعية وإيصال الحقوق إلى أهلها، فالعدل في الرعية وأنصاف المظلوم يبعث في الأمة العزة والكرامة ويولد جيلاً محارباً وأمة تحررت إرادتها بدفع الظلم عنها، رعية تحب حكامها وتطيعهم، لأنهم أقاموا العدل على أنفسهم وأقاموا العدل على غيرهم وأما الظلم فهو ظلمات في الدنيا والآخرة وهو يؤذن بزوال الدول وقد حرم الله الظلم على نفسه فقد قال في الحديث القدسي: يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا. وقال تعالى: M ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ . . . L (الصافات: ٢٢) وقال تعالى: M y z { | } ~ ¡ ¢ £ ¤ ¥ ¦ § ¨ © ª « ¬ ® ¯ ° ± ² ³ ´ µ ¶ ¸ ¹ º » ¼ ½ ¾ ¿ À Á Â Ã Ä Å Æ Ç È É Ê Ë Ì Í Î Ï Ð Ñ Ò Ó Ô Õ Ö × Ø Ù Ú Û Ü Ý Þ ß à á â ã ä å æ ç è é ê ë ì í L (النمل: ٥٢) وقد سجل التاريخ بأن نور الدين محمود ساد العدل في دولته وتم إيصال حقوق الناس إليهم فنشطوا في الجهاد والدفاع عن دينهم وعقيدتهم، وأوطانهم وأعراضهم ومن أبرز أعماله الإصلاحية والتجديدية إقامته للعدل في دولته وقد أولى نور الدين المؤسسة القضائية

(٤٩) فقه النصر والتمكين في القرآن الكريم (صـ٢٦٣).

(٥٠) فقه النصر والتمكين (صـ٤٥٥).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

اهتماماً كبيراً وجعلها في قمة أجهزته الإدارية، وخول القضاة على اختلاف درجاتهم في سلم المناصب القضائية صلاحيات واسعة، إن لم نقل مطلقة ومنحهم استقلالاً تاماً، لكونهم الأداة التنفيذية لا قرار مبادئ الحق والعدل، وتحويل قيم الشريعة ومبادئها إلى واقع ملتزم وتوجت جهوده بإنشاء دار العدل التي كانت بمثابة محكمة عليا لمحاسبة كبار الموظفين وإرغامهم على سلوك المحجة البيضاء أو طردهم واستبدالهم بغيرهم إن اقتضى الأمر[51].

وكان شعاره ما أكده لأصحابه مراراً: حرام على كل من صحبني ولا يرفع إلى قصة مظلوم لا يستطيع الوصول إلي. ويحكي خادمه شاذبخت الطواشي الهندي ـ الذي كان أحد نوابه في حلب ـ هذه الحادثة ذات الدلالة الواضحة في هذا المجال: كنت يوماً أنا ورجل واقفين على رأس نور الدين وقد صلى المغرب وجلس وهو مفكر فكراً عظيماً وجعل ينكش باصبعه الأرض، فعجبنا من فكره وقلنا: في أي شيء يفكر ؟ في عائلته أو في وفاء دينه؟ وكأنه فطن بنا فرفع رأسه وقال ما تقولان ؟ فأجبناه بعد تردد فقال: والله إني أفكر في وال وليته أمور المسلمين فلم يعدل فيهم، أو فيمن يظلم المسلمين من أصحابي وأعواني وأخاف المطالبة بذلك من الله (أمام الله): فبالله عليكم.. وإلا فخبزي عليكم حرام ـ لا تريان قصة مظلوم لا ترفع إلي، أو تعلمان مظلمة، إلا وأعلماني بها وأرفعها إلي[52].

وقد وصف ابن الأثير نور الدين بأنه: كان يتحرى العدل وينصف المظلوم من الظالم كائناً من كان القوي والضعيف عنده في الحق سواء، فكان يسمع

(٥١) نور الدين محمود الرجل والتجربة (صـ٧٥).
(٥٢) الكواكب (صـ٢٥).

شكوى المظلوم ويتولى كشف ذلك بنفسه، ولا يكل ذلك إلى حاجب ولا أمير، فلا جرم أن سار ذكره في شرق الأرض وغربها[53].

دار العدل أو المحكمة العليا: كانت قمة إجراءاته القضائية إنشاءه داراً في دمشق لكشف المظالم سماها (دار العدل) وكانت أشبه بمحكمة عليا لمحاسبة كبار الموظفين ثم عممت صلاحياتها فامتدت أقضيتها إلى سائر أبناء الأمة وقد جاء إنشاؤها بسبب من تزايد عدد من كبار الأمراء في دمشق، وبخاصة أسد الدين شيركوه وتماديهم في اقتناء الأملاك، وتجاوز بعضهم حقوق البعض الآخر، فكثرت الشكوى إلى قاضي القضاة كمال الدين الشهرزوري فأنصف بعضهم من بعض لكنه لم يقدم على الإنصاف من شيركوه، فأنهى الحال إلى نور الدين، فأصدر أمره حينئذ ببناء دار العدل[54].

يقول ابن الأثير: فلما سمع شيركوه ذلك أحضر نوابه جميعهم وقال لهم: اعلموا أن نور الدين ما أمر ببناء هذه الدار إلا بسببي وحدي، وإلا فمن هو الذي يمتنع على كمال الدين؟ والله لئن حضرت إلى دار العدل بسبب أحدكم لأصلبنّه فامضوا إلى كل من بينكم وبينه منازعة في ملك فافصلوا الحال معه وأرضوه بأي شيء أمكن ولو أتى على جميع ما بيدي فقالوا له: إن الناس إذ علموا هذا اشتطوا في الطلب. فقال: خروج أملاكي من يدي أسهل عندي من أن يراني نور الدين بعين أني ظالم، أو يساوي بيني وبين آحاد العامة في الحكومة (أي القضاء)؛ فخرج أصحابه من عنده وفعلوا ما أمرهم، وأرضوا خصماءهم وأشهدوا عليهم، فلما فرغت دار العدل جلس نور الدين فيها لفصل الحكومات فلم يحضر عنده أحد يشكو من أسد الدين، فعرفه الحال فقال: الحمد لله إذ أصحابنا ينصفون من أنفسهم قبل حضورهم عندنا[55].

(٥٣) الباهر (صـ١٦٦).
(٥٤) نور الدين محمود الرجل والتجربة (صـ٧٦).
(٥٥) الباهر (صـ١٦٨).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وثبت لنور الدين أهمية هذه الدار فعممها في غير دمشق، وكان نور الدين يجلس في دار العدل مرتين في الأسبوع، وقيل أربع مرات أو خمس للنظر في أمور الرعية وكشف ظلاماتهم: لا يطلب بذلك درهما ولا ديناراً ولا زيادة ترجع إلى خزانته، وإنما يفعل ذلك ابتغاء مرضات الله[56].

وكان يحضر معه قاضي القضاة كمال الدين الشهرزوري وكبار العلماء والفقهاء من سائر المذاهب لاعتمادهم كمجلس استشاري لاتخاذ القرارات النهائية ويأمر بإزالة الحاجب والبواب حتى يصل إليه الضعيف والقوى والفقير والغني، ويكلمهم بأحسن الكلام ويستفهم منهم بأبلغ النظام حتى لا يطمع الغني في دفع الفقير بالمال ولا القوي في دفع الضعيف بالمقال ويحضر في مجلسه العجوز الضعيفة التي لا تقدر على الوصول إلى خصمها والمكالمة معه فتغلب خصمها طمعاً في عدله ويعجز الخصم عن دفعها خوفاً من عدله، فيظهر الحق عنده فيجري الله على لسانه ما هو موافق للشريعة، ويسأل العلماء والفقهاء عما يشكل عليه من الأمور الغامضة فلا يجري في مجلسه إلا محض الشريعة[57].

ولم يميز نور الدين في دار العدل هذه بين أبناء رعيته على أي دين كانوا، فكان كما يقول ابن الأثير[58]: ينصف المظلوم ولو أنه يهودي من الظالم ولو

(٥٦) الروضتين (١/ ٦٢).
(٥٧) الروضتين (١/ ٦٢).
(٥٨) الكامل (١١/ ٤٠٣، ٤٠٤)، وقال ابن الأثير في وصف عدله: "وأما عدله، فإنه ى لم يترك في بلاده، على سعتها، وكسًا ولا عشراً بل أطلقها جميعها في مصر والشام والجزيرة والموصل، وكان يعظم الشريعة، ويقف عند أحكامها، وأحضره إنسان إلى مجلس الحكم، فمضى معه إليه، وأرسل إلى القاضي كمال الدين الشهرزوري يقول: قد جئت محاكمًا، فاسلك معي ما تسلك مع الخصوم، وظهر الحق له، فوهبه الخصم الذي أحضره، وقال: أردت أن أترك له ما يدعيه،

أنه ولده أو أكبر أمير عنده، وكان قبل إنشائه هذه الدار يجلس كل يوم ثلاثاء في المسجد المعلق بدمشق: ليصل إليه كل أحد من المسلمين وأهل الذمة حتى نساؤهم، الأمر الذي يفسر لنا ما أورده الرحالة اليهودي بنيامين التطيلي من تواجد العدد الكبير من اليهود في دمشق وحلب حيث بلغ في الأولى نحو ثلاثة آلاف وفي الثانية ألفاً وخمسمائة، وأما النصارى المتواجدون في دولة نور الدين فإنهم لم يمسوا بأذي ـ رغم ظروف الصراع الإسلامي الصليبي ـ وعوملوا كمواطنين لهم حق الرعاية الكاملة ولم يعرف عنه أنه هدم في حياته كنيسة ولا آذى قساً أو راهباً وقد كان الصليبون إذا دخلوا بلداً قتلوا جلة أهله المسلمين ولو أنه تأثر بذلك وعاملهم بالمثل لقام له في ذلك عذر، ولكنه كان إنساناً عظيماً لا يقيس نفسه بأولئك الجفاة الذين أساءوا حتى إلى نصارى البلاد، فظلت الكنائس في بلاده عامرة باهلها، بل إن الصليبيين كانوا إذا خرجوا في بلد تنفس نصاراه الصعداء وآمنوا إلى عدله وإنصافه[59].

٢ـ استجابته للقضاء: طلب مرة من قبل أحد المدعين فما كان من أحد كبار موظفيه إلا أن دخل عليه ضاحكاً وقال مستهزئاً: يقوم المولى إلى مجلس الحكم، فأنكر نور الدين على الرجل سخريته.

وقال: تستهزئ بطلبي إلى مجلس الحكم؟ وأردف: يُحضر فرسي حتى نركب إليه: السمع والطاعة؛ قال الله تعالى: M ¶ ¸ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا . . . L (النور: ٥١). ثم نهض وركب حتى دخل باب المدينة واستدعى أحد أصحابه وقال له: أمضي إلى القاضي وسلم عليه وقل له: أني جئت هاهنا امتثالاً لأمر الشرع[60].

وإنما خفت أن يكون الباعث لي على ذلك الكبر والأنفة من الحضور إلى مجلس الشريعة، فحضرت ثم وهبته ما يدعيه". انتهى.
(٥٩) نور الدين محمود (صـ٣٦٧، ٣٦٨).
(٦٠) الباهر (صـ١٦٦).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ويوماً كان يلعب الكرة ـ هوايته المفضلة ـ في دمشق، فرأى رجلاً من أتباعه يحدث آخر ويومئ بيده إليه، فأرسل إليه يسأله عن حاله، فأعلمه أن له مع نور الدين خصومة حول بعض الأملاك، وطلب حضوره إلى مجلس القضاء للفصل في المسألة، فتردد الغلام في عرض الموضوع على نور الدين، ولكن هذا ألح عليه، فلما تبين له الأمر ألقى العصا من يده وخرج من الميدان وسار إلى القاضي كمال الدين وقال له: إنني قد جئت محاكماً فاسلك معي ما تسلكه مع غيري، فلما حضر المدعي ساوى كمال الدين بينه وبين خصمه وإذ لم يثبت ضده شيء قال للقاضي ولكافة الحضور: هل ثبت له عندي حق؟ قالوا: لا فقال: اشهدوا أنني قد وهبت له هذا المال الذي حاكمني عليه وقد كنت أعلم أنه لاحق له عندي وإنما حضرت لئلا يظن أنني ظلمته، فحيثما ظهر أن الحق لي وهبته إياه[61].

تلك غاية العدل والإنصاف بل غاية الإحسان وهي درجة وراء العدل فرحم الله هذه النفس الزكية الطاهرة المنقادة إلى الحق الواقفة معه كما علق ابن الأثير[62].

وفي عام ٥٥٨هـ/ ١١٦٢م أدعى رجل على نور الدين أن أباه (زنكي) أخذ من ماله شيئاً بغير حق وأنه يطالب بذلك. فقال نور الدين: أنا لا أعلم شيئاً عن ذلك فإن كان لك بينة تشهد بذلك فهاتها وأنا أرد إليك ما يخصني، فإني ما ورثت جميع ماله فقد كان هناك ورثة غيري، فمضى الرجل ليحضر البينة[63].

(٦١) السابق نفسه.
(٦٢) السابق (صـ١٦٧).
(٦٣) نور الدين محمود الرجل والتجربة (صـ٨٠).

٣ـ لا عقوبة على الظنة والتهمة: لم يكن نور الدين يصدر العقوبة على الظنة والتهمة بل يطلب الشهود على المتهم، فإن قامت عليه البينة الشرعية عاقبة العقوبة العادلة من غير تعد، فدفع الله بهذا الفعل عن الناس من الشر ما يوجد في غير ولايته مع شدة السياسة والمبالغة في العقوبة والأخذ بالظنة وآمنت بلاده مع سعتها، وقل المفسدون ببركة العدل واتباع الشرع المطهر[64].

٤ـ من عدله بعد موته: ومن عدله أيضاً بعد موته وهو من أعجب ما يحكى: أن إنسان كان بدمشق استوطنها وأقام بها لما رأى من عدل نور الدين رحمه الله، فلّما توفي تعّدي بعض الأجناد على هذا الرجل فشكاه، فلم يُنصَف، فنزل من القلعة وهو يستغيث ويبكي وقد شق ثوبه وهو يقول: يا نور الدين لو رأيتنا وما نحن فيه من الظلم لرحمتنا، أين عدلك؟ وقصد تربة نور الدين ومعه من الخلق مالا يحصى وكلّهم يبكي ويصيح فوصل الخبر إلى صلاح الدين وقيل له: احفظ البلد والرعية وإلاّ خرج عن يدك، فأرسل إلى ذلك ـ وهو عند تربة نور الدين يبكي والناس معه ـ فطيّب قلبه ووهبه شيئاً وأنصفه، فبكى أشّد من الأول فقال له صلاح الدين لم تبكي؟ قال: أبكي على سلطان عدل فينا بعد موته، فقال صلاح الدين: هذا هو الحق، وكل ما نحن فيه من عدل فمنه تعلّمناه[65].

٥ـ رقبتي دقيقة لا أطيق حمله والمخاصمة عليه بين يدي الله تعالى: قال ابن الأثير: وحكى لي من أثق به أنّه دخل يوماً إلى خزانة المال فرأى فيها مالاً أنكره فسأله عنه، فقيل: إن القاضي كمال الدين أرسله وهو من جهة كذا. فقال: إن هذا المال ليس لنا ولا لبيت المال في هذه الجهة شيء، وأمر برده وإعادته إل كمال الدين فردّه إلى الخزانة وقال: إذا سألك الملك العادل عنه فقولوا له عنّي:

(٦٤) عيون الروضتين (١/ ٣٦٤).
(٦٥) السابق (١/ ٣٦٥).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

إنه له . فدخل نور الدين الخزانة مرّة أخرى فرآه فأنكر على النّواب قال : ألم أقل لكم يعاد هذا المال على أصحابه فذكروا له قول كمال الدين ، فردّه إليه وقال للرسول : قل لكمال الدين أنت تقدر على حمل هذا المال ، وأما أنا فرقبتي دقيقة لا أطيق حمله والمخاصمة عليه بين يدي الله تعالى ، يُعاد قولاً واحداً[66] .

٦ـ رجال القضاء في دولة نور الدين : اعتمد نور الدين في أجهزته القضائية رجالاً ثقاة عرف كيف ينتقيهم ، بعد إذ رأى فيهم من الفقه الواسع والتقوى العميقة ما يؤهلهم لتسلم منصب القضاء الذي تربع في عهده – كما رأينا – قمة مؤسسات الدولة وحظي باستقلال تام وأصبح حكمه هو الحكم الملزم للجميع بما فيهم السلطان نفسه وكبار أمرائه ويبرز من بين حشد كبير من القضاة آل الشهرزوري وعلى رأسهم كمال الدين أبو الفضل محمد بن الشهرزوري ، أولئك الذين كانوا قد تخصصوا منُذ عهد عماد الدين زنكي في القضاء وما قبله وبرعوا فيها[67] .

أـ القاضي كمال الدين الشهرزوري : حدث في مطلع عام ٥٥٥هـ / ١١٦٠م أن تقدم قاضي دمشق زكي الدين أبو الحسن علي بن القرشي برقعة إلى نور الدين يطلب فيها إعفاءه من القضاء ، فأجابه إلى طلبه وولي قضاء دمشق القاضي الإمام كمال الدين بن الشهرزوري وهو كما يصفه ابن القلانسي المعاصر له : المشهور بالتقدم ووفور العلم وصفاء الفهم والمعرفة بقوانين الأحكام وشروط استعمال الإنصاف والعدل والنزاهة وتجنب الهوى

(٦٦) السابق (١/ ٣٦٤) .
(٦٧) نور الدين محمود الرجل والتجربة (صـ٨٢) .

والظلم وحكم بين الرعايا بأحسن أفعال في حالة غيابه أو اشتغاله بمهمة ما فإن ولده محي الدين ينوب عنه في منصبه[68] .

كان كمال الدين قد ولد عام ٤٩١هـ/ ١٠٩٧م وتفقه ببغداد وسمع الحديث من كبار المحدثين وقد تخرج من النظامية ، وكان يتردد إلى بغداد وخراسان رسولاً من عماد الدين زنكي ، ثم ما لبث أن وفد على نور الدين وأصبح بعد أقل من عامين (٥٥٧هـ/ ١١٦١م) قاضياً لقضاة الدولة كلها وأمر نور الدين القضاة ببلاده أن يكتبوا الكتب نيابة عنه وهناك من يقول أن زكي الدين قاضي دمشق لم يتقدم بالإعفاء عام ٥٥٥هـ/ ١١٦٠م وإنما أعفاه نور الدين بسبب امتناعه عن أن يكون أحد نواب كمال الدين ، ومهما يكن من أمر فإن كمال الدين تمكن من منصبه وأصبح في دمشق كما يقول العماد : الحاكم المطلق وأصبحت دولته نافذه الأوامر منتظمة الأمور . وورد عنه كذلك أنه ارتقى إلى درجة الوزارة فكان له الحل والعقد في أحكام الشام[69] .

وكان له من صفاته الشخصية وسياسته القائمة على البر وحفظ الأصدقاء ، ومن ثقافته الواسعة وخبرته الفقهية والقضائية والسياسية ، خير معين على مواصلة الطريق حتى النهاية ولم يكتف كمال الدين بمهامه القضائية بل كان يملك نزعة متأصلة للبناء والإعمار فأشرف بنفسه على بناء أسوار دمشق ومدارسها ومارستاناتها وقد فوضه نور الدين مهمة الإشراف على دار الضرب وأوقاف الدولة وتوجيه مصارفها لبناء الأسوار وحفظ الثغور فأنجز مهمته على خير وجه ، كما أولى عناية خاصة بإعمار الجامع الأموي بدمشق والإنفاق عليه بسخاء[70] .

(٦٨) السابق نفسه .
(٦٩) السابق (صـ٨٣) .
(٧٠) سنا البرق الشامي (صـ١٤٦) ، البداية والنهاية (١٦/ ٤٨١) .

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وزاد نور الدين على ذلك كله فاعتمده مبعوثاً إلى الخليفة العباسي في بغداد، كما اعتمد ابنه محي الدين نائباً عنه في قضاء حلب والبلدان التابعة لها فضلاً عن النظر في أمور ديوانها وكان محي الدين هذا، كما يصفه العماد: من أهل الفضل، وله نظم ونثر وخطب، وكانت معرفته بالفقه في أيام التفقه في بغداد في المدرسة النظامية منُذ سنة ٥٣٥هـ/ ١١٤٠م، كما اعتمد في حماة وحمص قضاة آخرين من بني الشهرزوري أنفسهم. وعندما دخل الموصل عام ٥٦٦هـ/ ١١٧٠م أقر على قضائها حجة الدين بن نجم الدين الشهرزوري[71]

ب ـ الشيخ شرف الدين أبو سعد بن أبي عصرون: تولى قضاء سنجار ونصيبين وحران وغيرها من مدن ديار بكر، وأصبح هناك أشبه بقاضي القضاة ينوب عنه في سائر المدن نواب أشرف على تعينيهم بنفسه[72]، فقد ولد بالموصل سنة ٤٩٢هـ أو ٤٩٣هـ/ ١٠٩٩م وتفقه على جماعة من العلماء وانتقل إلى حلب سنة ٥٤٥هـ/ ١١٥٠م، ثم قدم دمشق لدى دخول نور الدين إليها عام ٥٤٩هـ/ ١١٥٤م ودرس في جامع دمشق، وتولى أوقاف المساجد، ثم رجع إلى حلب وأقام بها، وصنف كتباً كثيرة في الفقه والمذاهب ودرس على يديه عدد كبير من التلاميذ وانتفعوا به وكان فقيهاً من طراز أول، ووصف بأنه من أفقه أهل عصره، وأنه إمام أصحاب الشافعي يومذاك وكان متوحداً في العلم والعمل وسرعان ما تقدم عند نور الدين فكلفه بالإشراف على بناء المدارس في حلب وحمص وبعلبك وغيرها، ثم ما لبث أن ولاه قضاء ديار بكر ومنحه ـ كما سبق وأن ذكرنا ـ صلاحيات واسعة[73]. كما اعتمده عام

(٧١) سنا البرق الشامي (صـ٩٧).
(٧٢) السابق (صـ١٠٠).
(٧٣) وفيات الأعيان (٣/ ٥٣).

٥٦٦هـ/ ١١٧٠م رسولاً إلى الخليفة المستضيئ في بغداد، وقد توفى عام ٥٨٥هـ/ ١١٨٩م.

٧ـ رفع الضرائب والمكوس: لم يترك نور الدين في بلد من بلاده ضريبة ولا مكساً ولا عشراً إلا وأطلقها جميعها في بلاد الشام والجزيرة وديار مصر وغيرها، مما كان تحت حكمه، فقد كان المكس في مصر يؤخذ من كل مائة دينار خمسة وأربعون ديناراً، أي ٤٥٪ وهذا إلغاء للمكوس، لم تتسع له نفس غيره وكان رحمه الله نادماً على ما فاته في أمر المكوس، فقد روى أبو شامة أن: الملك العادل كان يرفع يديه إلى السماء ويبكي ويتضرع ويقول: اللهم أرحم العشّار المكّاس.. وكان قد دعا أحد معاونيه ـ موفق الدين خالد ـ وقال له: اقعد واكتب بإطلاق المؤن والمكوس والأعشار واكتب للمسلمين أني قد رفعت عنكم ما رفعه الله تعالى عنكم، واثبت ما أثبته الله عليكم. وقد أمر بقراءة المناشير في الأقاليم في المساجد على الناس. روى أبو شامة: أن الملك العادل نور الدين لما دخل الموصل سنة ٥٦٦هـ، أمر بإسقاط جميع المكوس والضرائب وأنشأ بذلك منشوراً يقرأ على الناس فيه: وقد قنعنا من الأموال باليسير من الحلال، فسحقا للسحت، ومحقاً للحرام الحقيقي بالمقت، وبعداً لما يبعد من رضا الرب، وقد استخرنا الله وتقربنا إليه بإسقاط كل مكس وضريبة في كل ولاية لنا بعيدة أو قريبة ومحو كل سنة سيئة شنيعة، ونفي كل مظلمة فظيعة وإحياء كل سنة حسنة.. إيثاراً للثواب الآجل على الحطام العاجل. وقرئ منشور آخر بإسقاط المكوس بمصر على المنبر في القاهرة عام ٥٦٧هـ بعد صلاة الجمعة، عن السلطان صلاح الدين، في أيام نور الدين ويأمره جاء فيه: وقد رأينا إسقاط المكوس الديوانية بمصر والقاهرة وأن نتجرد فيها، لنلبس أثواب الأجر الفاخرة، ونطهر منها مكاسبنا ونكفي الرعية ضرهم.. ونضع المكوس فلا ترفعها من بعد، يد حاسب ولا قلم كاتب وهدد من لا يطيق ذلك من المسؤولين: ومن أزالها زلّت قدمه، ومن أحلّها حلّ دمه ومن قرأه أو قرء

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

عليه فليتمثل ما أمرنا به وليمضه مرضياً لربه، ممضياً لما أمر به، ولم ترق هذه الخطة في إلغاء الضرائب لرجال الدولة، فاحتج أسد الدين شيركوه بقوله: فالأجناد الذين تأتي أرزاقهم من هذه الجهات، من أين تعطيهم أرزاقهم؟ أي رواتبهم؟ فأجابه نور الدين: إن كنا نغزو من هذه الجهات أي من هذه الموارد: نتركها ونقعد ولا نخرج.

ولم يكتف نور الدين بذلك، بل أمر خطباء المساجد أن يطلبوا من الناس، أن يسامحوه فيما جبى منهم قبلاً من هذه الضرائب وكتب إلى الخليفة كتاباً يعلمه بما أطلق وبمقدار ما أطلق ويسأله أن يتقدم إلى الوعاظ بأن يستعجلوا من التُّجَار ومن جميع المسلمين له في حلٍّ مما كان قد وصل إليه يعني من أموالهم فتقدّم بذلك وجعل الوعاظ على المنابر ينادون بذلك[74].

وعندما خرج لأخذ شيزر خرج أبو غانم بن المنذر في صحبته فأمره نور الدين رحمه الله بكتابة منشور بإطلاق المظالم بحلب ودمشق وحمص وحَرَّان وسنجار والرحبة. وعزاز، وتل باشر، وعداد العرب، فكتب عنه توقيعاً نسخته: بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما تقرب به إلى الله سبحانه وتعالى صافحاً وأطلقه مسامحاً لمن علم ضعفه من الرعايا عن عمارة ما أخربته أيدي الكُفّار، أبادهم الله، عند استيلائهم على البلاد وظهور كلمتهم في العباد، رأفة بالمسلمين المثاغرين[75]، ولطفاً بالضعفاء المرابطين، الذين خَصَّهم الله سبحانه بفضيلة الجهاد، واستمنحهم بمجاورة أهل العناد اختباراً لصبرهم وإعظاماً لأجرهم، فصبروا احتساباً، وأجزل الله لهم أجراً وثواباً M . . . إِنَّمَا يُوَفَّى L ê é è ç (الزمر: ١٠) وأعاد عليهم ما اغتصبوا عليه من أملاكهم التي أفاء الله عليهم بها من الفتوح العمُرِيَّة وأقرها من الدولة

(٧٤) الروضتين (١/ ٦٧: ٦٩).
(٧٥) سكان الثغور.

الإسلامية بعد ما طرأ عليها من الظلمة المتقدمين، واسترجعه بسيفه من الكفرة الملاعين، فطمس عنهم بذلك معالم الجَوْر وهدم أركان التعدّي، واقر الحق مقرّه لقوله تعالى: M ^ _ ` a b c . . . L (الأنعام: ١٦٠)، M . . . _ ` a b . . . L (البقرة: ٢٦١). ثم لما أعانه الله بعونه وأيّده بنصره، وقمع به عادية الكفر، وأظهر بهمته شعائر الإسلام، وأظفره بالفئة الطّاعنة، وأمكنه من ملوكها الباغية، فجعلهم بين قتيل غير مقاد وهارب ممنوع الرُّقاد M وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلْأَصْفَادِ * هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ * وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ L (ص الآيات: ٣٨: ٤٠) علم أن الدنيا فانية فاستخدمها للآخرة الباقية، واستبقى ملكه الزّائل بأن قدّمه أمامه، وجعله ذُخراً للمعاد، فالتقوى مادة دارَّة إذا انقطعت المواد وجادّة واضحة حين تلتبس الجواد M z } | { ~ شَيْـًٔا ۚ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ L (الانفطار: ١٩) فصفح لكافة المسافرين وجميع المسلمين بالضَّرائب والمكوس، وأسقطها من دواوينه وحرّمها على كل متطاول إليها، ومتهافت عليها، تجنباً لإثمها واكتسابا لثوابها، فكان مبلغ ما سامح به وأطلقه وأنفذ الأمر فيه ـ تباعاً لكتاب الله وسنة نبيه ﷺ ـ في كل سنة من العين مائة ألف وستة وخمسين ألف دينار[76].

وكانت النتيجة الطبيعية لذلك، أن نشط الناس للعمل، فأخرج التجار أموالهم، ومضوا يتاجرون، وجاءت الجبايات الشرعية بأضعاف ما كان يجبي من وجوه الحرام بينما كان ما ألغاه من المكوس المستحدثة لا يزيد عن (١٦٥,٠٠٠) مائة وخمسة وستين ألف دينار، ويقول ابن خلدون: العدوان على الناس في أموالهم ذاهب بآمالهم في تحصيلها واكتسابها لما يرونه حينئذ من أن غايتها ومصيرها انتهابها من أيديهم وإذا ذهبت آمالهم في اكتسابها وتحصيلها، انقبضت أيديهم عن السعي في ذلك، وعلى قدر الاعتداء ونسبته،

(٧٦) الروضتين (١/ ٧٠).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

يكون انقباض أيديهم عن المكاسب، كسدت أسواقاً العمران، وانتقضت الأحوال ويقول: العدوان على الناس في أموالهم وحرمهم ودمائهم وأسرارهم وأعراضهم.. يفضي إلى الخلل والفساد دفعة وتنتقص الدولة سريعاً[77].

وكانت هناك أمور عديدة ساعدة نور الدين على إلغاء المكوس وأهمها على الإطلاق توفيق الله له، فقد رأى له وزيره موفق الدين خالد بن القيسراني الشاعر في منامه أنه يغسل ثيابه وقصَّ ذلك عليه ففكر ساعة، ثم أمره بكتابة إسقاط المكوس وقال: هذا تفسير منامك. وكان في تهجده يقول: أرحم العشّار المكّاس وبعد أن أبطل ذلك استعجل الناس في حلّ وقال: والله ما أخرجناها إلا في جهاد عدوّ الإسلام، يعتذر بذلك إليهم عن أخذها منهم[78].

ومن الأسباب التي كانت محركة لنور الدين في إبطال تلك المظالم والخلاص من تلك المآثم موعظة أبي عثمان المنتخب بن أبي محمد البحتري الواسطي فقد قال قصيدة في نور الدين وقدمها له جاء فيها:

مثّلْ وقوفك أيها المغرور ... يوم القيامة والسماء تمور
إن قيل نور الدين رحت مسلّماً ... فاحذر بأن تبقى ومالك نور
أنهيتَ عن شرب الخمور وأنت من ... كأس المظالم طافحٌ مخمورَ
عطّلتَ كاسات المدام تعفّفاً ... وعليكَ كاسات الحرام تدورَ
ماذا تقول إذا نقلت إلى البلى ... فرداً وجاءك منكرٌ ونكيرَ

(٧٧) مقدمة ابن خلدون (صـ٢٩٠).
(٧٨) الروضتين (١/ ٥٤).

وتعلّقتْ فيك الخصوم وأنت ... في يوم الحساب مسحّبَ مجرورَ
وتفرّقتْ عنك الجنودَ وأنت ... في ضيق اللحود موسّدٌ مقبورَ
ووددت أنك ماوليتَ ولاية ... يوماً ولا قال الأنام أميرَ
وبقيت بعد العزّ رهنَ حفيرة ... في عالم الموتى وأنت حقير
وحشرتَ عرياناً حزيناً باكياً ... قلقاً ومالك في الأنام محيَر
أرضيتَ أن تحيا وقلبك دارسٌ ... عافي الخراب وجسمك المعمورَ
أرضيت أن يحظى سواك بقربه ... أبداً وأنت مبعّدٌ مهجور
مهّد لنفسك حجّةً تنجو بها ... يوم المعاد لعلك المعذورَ

وكان هذا الرجل من الصالحين الكبار فلما سمعها نور الدين بكى وأمر بوضع المكوسات والضرائب في سائر بلاده[79]، فرحم الله الواعظ والمتعظ ووفق من أراد الاقتداء بهم.

٨ـ ما قيل من الشعر في عدله[80]:

قال ابن منير:

بنور الدين روّض كلّ محلٍ ... من الدنيا وجدّد كلّ بالِ

(٧٩) البداية والنهاية (١٦/ ٤٨٩).
(٨٠) شعر الجهاد الشامي في مواجهة الصليبيين (صـ١٦٧: ١٧١).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وَصَوّب عَدْلَه في كَلّ أوب فعوض عاطلاً منه بحال
وَينكي رأيهَ رأي المحامي ويَقْتَلَ خوفه قبل القتال
لقد أحصدتَ للإسلام عزاً يفوت سَنامه يَدكَلَ قال

وقال أيضاً:

وانْتاشى دينَ محمد محمودَهَ من بعد ما عَلَقَ دماً عَبَراتَهَ
رددت على الإسلام عصْرَ شبابه ثباته من دونه وثباتَهَ
أرسى قواعده ومَدّ عمادَهَ صَعْداً وشيّدا سوره سوراتَهَ
وأعاد وجه الحقّ أبيض ناصعاً إصلاتَهَ وصِلاتَهَ وصَلاتَهَ

وقال أيضاً:

لا تآمنوا في الله بطشة ثائر لله ملءَ سريره أسرارَ
صافٍ إذا كَدِرَ المعادنَ عادلٌ إن حاف حكّام الملوك وجاروا

وقال أيضاً:

أوَ لَسْتَ مَنْ ملأ البسيطة عَدْلَهَ واجتَبّ بالمعروف آنف المنكَرِ
حدبَ الأب البَر الكبير، ورأفة الأم الحفية باليتيم الأصعر
يا هضبة الإسلام من يعصم بها يأمَنْ، وَمَنْ يَتَولّ عنها يكفَرِ

وقال أيضاً:

لا مَلْكَ إلا مَلْكَ محمود الذي تَخذَ الكتاب مظاهراً ووزيرا
تمشى وراء حدوده أحكامَهَ تآتَمَهَنّ فيحكم التقديرا
يقظان ينشر عَدْلَهَ في دولة جاءت لِمَطْوي السماح نشورا

وقال أيضاً:

يا سائلي عن نهج سيرته هل غير مفرق هامة الفجر
عدل حقيق من تآمَلَه أن يحي العمرين بالذكر

وقال أيضاً:

ثنى يده عن الدنيا عفاف ومال بها عن الأموال زهد
رأى حط المكوس عن الرعايا فأهدر ما أنشاه بعد
ومد لها رواق العدل شرعاً وقد طَوى الرواق ومن يمد
وبات وعند باب العرش منها لدولته دعاء لا يرد

وقال العماد الأصفهاني في عدله:

يا محي العدل الذي في ظله من عدله رعت الأسود مع المهَا
محمودَ المحمودَ من آيامه لبهائها ضحك الزمان وقهقها

إن الملك العادل نور الدين زنكي حرص على بناء مجتمع العدل والقوة، وسوف يأتي الحديث بإذن الله عن اهتمام نور الدين بالقوة العسكرية، ولا شك أن القوة العسكرية لا يمكن بناؤها في مجتمع ضعيف فهي جانب من جوانب المدينة المتكاملة، فالمجتمع القوي عسكرياً يلزم أن يكون قوياً في صناعاته الأخرى لأن الأمن العسكري يحتاج إلى الأمن الثقافي والأمن الغذائي والأمن الصحي[81]، وهذه الأمور عمل نور الدين على توفيرها كما سيأتي بيانه بإذن الله تعالى: M ! " # $ % & ' ( ) * + , - . / 0 1 2 3 4 5 6 7 8 9 : ; < = > L (الحديد: ٢٥). فهذه

(٨١) الإسلامي والوعي الحضاري (صـ١١٥).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الآية الكريمة توضح الأسس اللازمة لبناء مجتمع قوي متحضر، يقوم على العدل والقوة، فالكتاب والميزان لإقامة العدل، والحديد لإيجاد القوة التي تحمي العدل وتكفل استمراره ولو أردنا تحويل هذا الشرح إلى لغة لقلنا إن الآية تشير إلى أن المجتمع المتحضر ينبغي أن تتوفر له الأيدلوجية الصالحة زائد التكنيك المتقدم، فالآيديولوجية تحفظ البنية الاجتماعية متماسكة بعيدة عن التجزئة والتشرذم، وتمنحها الأهداف ووحدة الحركة والتصميم والإرادة وتمنع ذوبانها في البنى الاجتماعية المغايرة في العقيدة والفكر والتنظيم الاجتماعي والاقتصادي، والتكنيك يمنحها فرص التقدم على الآخرين علمياً وصناعياً، ليس من أجل إذلالهم واستعمارهم فالأيديولوجية الإسلامية لا تسمح بذلك، بل لإقامة العدل في الأرض بعد إقامته في المجتمع الإسلامي ثم لضمان استمرار العدل الذي أرسل الله تعالى الرسل ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ لبيانه ووضع الموازين الحق له، فنزول الكتب السماوية وخاتمها القرآن الكريم يهدف إلى تثبيت موازين العدالة وبيان الأسباب والوسائل اللازمة لتحقيقها، فالناس يقومون بالعدل ويحيون بالأمل ويسعون بالأمن وينتفعون بالعمل والإنتاج[82].

إن العدل الشامل لا يتحقق إلا بتطبيق شرع الله تطبيقاً قائماً على الفهم الصحيح للكتاب والسنة والمعرفة الدقيقة بالواقع من ناحية وبمقاصد الشريعة الإسلامية من ناحية أخرى، وهو أمر لا يتحقق إلا بتكوين العدد المناسب من العلماء المجتهدين النابهين[83].

رابعاً: مكانة العلماء في دولة نور الدين محمود:

فهم نور الدين محمود زنكي أن من أسباب النهوض وجود القيادة الربانية، فهي التي تستطيع أن تنتقل بفضل الله وتوفيقه بالأمة نحو أهدافها المرسومة بخطوات ثابتة وكان على قناعة تامة بأهمية وجود العلماء الربانيين على رأس

(٨٢) السابق (صـ١١٧).
(٨٣) السابق نفسه.

القيادة الربانية فهم قلب القيادة الربانية وعقلها المفكر فنور الدين زنكي يعرف أن تحرير الأرض وتوحيدها ليس عملاً سياسياً أو عسكرياً فحسب، بل أنه أوسع بذلك بكثير، إنه مواجهة المذهب الشيعي الرافضي الباطني والذي كان بالفعل خطراً داخلياً يهدد عقيدة الأمة وسلامة دينها والصراع الحضاري مع الغرب الأوروبي النصراني، أي بين أمة وأمة وإنه بدون تأصيل (الذات العقائدية) للأمة المسلمة فلن تكون انتصاراتهم على الخصم سوى أعمالاً جزئية موقوته معرضة دوماً للمد والجزر وللتغيير والتبّدل كما كان يحدث دائماً وما يقتضيه " الموقف " هذا، ليس مجرد انتصار خارجي في معركة أو استرداد حصن . . إنما بناء أمة مقاتلة تعرف كيف تحمي وجودها العقائدي وتحفظ حدود شخصيتها الحضارية من أن تتفتت وتضيع وحينذاك سوف يتحول كل عنصر عسكري أو كسب سياسي إلى إنجاز بنائي يزيد المجتمع المقاتل قوة وأصالة وتماسكاً لا مجرد تكديس شيء لا يشده الرباط تكديس كمي يثبت للضربة والضربتين ولكنه الثالثة أو الرابعة ينهار فتذهب مع انهياره هدراً جهود السنين الطوال وعرقها ودماوها[84].

فالنشاط العلمي في عصر نور الدين لم يكن أبداً ترفاً فكرياً، ولا إفرازاً تقليدياً لأجهزة الدولة، لكنه "تصميم" هادف يسعى إلى عملية "التأصيل العقائدي" من خلال نشاط ثقافي وتربوي واسع النطاق يرتبط به الفكر بالسلوك، والعلم بالعمل، وتزول حواجز الفصل والازدواج، وتنمحي الثنائيات، ويبرز إلى حيزّ التاريخ "الإنسان" المتوازن الذي أراده الإسلام، (والجماعة) المؤمنة التي دعا إليها كتاب الله وسنة رسوله[85].

(٨٤) نور الدين محمود الرجل والتجربة (صـ١٣٩).
(٨٥) السابق (صـ١٣٠).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وهذا الإنسان المتوازن لا بد أن يشرف على إخراجه قيادة ربانية على رأسها العلماء الربانيين، وقد كان نور الدين نفسه عالماً قبل أن يكون حاكماً وكان هذا نقطة البدء وحجر الزاوية[86].

فقد كان يعشق العلم ويسعى وهو في قمة السلطة إلى التشبه بالعلماء والصالحين والاقتداء بسيرة من سلف منهم، وكان العلماء عنده في المنزلة الأولى والمحلّ العظيم[87]، يحضرهم إلى مجلسه، فيدينهم ويتواضع لهم، وإذا أقبل أحدهم إليه يقوم له مذ تقع عينه عليه، ويجلسه معه ويقبل عليه بكليته تعظيماً وتوقيراً واحتراماً، وكان مجلسه ندوة كبيرة يجتمع إليها العلماء والفقهاء للبحث والنظر وكان نور الدين عارفاً بمذهب أبي حنيفة، ملتزماً به، من غير تعصب منه ولا تحيّز فالمذاهب عنده ـ كما أجمع المؤرخون ـ كلها سواء والإنصاف سجيته في كل شيء، سمع الحديث حتى حصل على الإجازة العلمية التي تتيح له أن يسمعه للآخرين. ولقد مارس مهمة التحديث هذه رغم كثافة عمله السياسي والعسكري، محاولة في تعزيز مكانة (السنّة) ونشرها بالحفظ والأداء والتحديث، كما ألف كتاباً في الجهاد، وأوقف كتباً كثيرة في مدارسه، وكان حسن الخط كثير المطالعة للكتب الفقهية متميزاً بعقله المتين ورأيه الثاقب الرزين، ولا شك أن هذا التوجه العلمي عند نور الدين اثر على سياسته التعليمية والتربوية التي شهدتها دولته[88].

إن أمة يسوسها العلماء والمتخصصون يمكن أن تينع وتزهو فيها شجرة المعرفة، ويوم نرى هذه الشجرة تذبل وتذوى وتنفض عنها أوراقها الصفراء، فلنا أن نحكم بأن هنالك في القمة حفنة من الجهلاء.

(٨٦) السابق (صـ١٣١).
(٨٧) مفرج الكروب (١/ ٢٨٣).
(٨٨) الباهر (صـ١٧١ : ١٧٣)، الكواكب (صـ٥٦، ٥٧)، مرآة الزمان (٨/ ٣١٣) نور الدين محمود الرجل والتجربة (صـ٣٥، ٣٦).

إن جهود نور الدين محمود في دعم العلماء واحترامهم وفتح مؤسسات الدولة للاستفادة منهم تذكرنا بمنهج عمر بن عبد العزيز، فيمكن أن نطلق على دولة عمر بن عبد العزيز، دولة العلماء، كما أن في دولة نور الدين مكانة للعلماء غير مسبوقة بالنسبة لمن سبقه من السلاجقة أو الحكام الذين حوله.

١ـ تقديمه للعلماء على الأمراء: كان أمراء نور الدين يحسدون العلماء والفقهاء على مكانتهم عنده فكان إذا أعطى أحداً منهم شيئاً مستكثراً يقول لأصحابه: هؤلاء جند الله وبدعائهم ننتصر على الأعداء ولهم في بيت المال حق أضعاف ما أعطيهم، فإذا رضوا منا ببعض حقهم فلهم المنة علينا[89].

وكان هؤلاء الأمراء يحاولون أحياناً الإيقاع برجال الدين والعلماء عند نور الدين، ينهاهم وإذا نقلوا عن إنسان عيباً يدافع عنه ويقول لهم من المعصوم؟ ويكفينا هنا أن نذكر رده على بعض أكابر الأمراء عندما حاول النيل من الفقيه قطب الدين النيسابوري، عنده وكان نور الدين قد استقدمه من خراسان وبالغ في إكرامه والإحسان إليه فقال نور الدين له: يا هذا إن ما تقوله فله حسنة تغفر له كل زله تذكرها وهي العلم والدين، وأما أنت وأصحابك ففيك أضعاف ما ذكرت وليست لكم حسنة تغفرها لو عقلت لشغلك عيبك عن غيرك وأنا أحتمل سيئاتكم مع عدم حسناتكم، أفلا أحتمل سيئة هذا ـ إن صحت ـ مع وجود حسناته؟ على أنني والله لا أصدقك فيما تقول، وإن عدت ذكره أو غيره بسوء لأوذينَّك، فكف عنه.

٢ـ البذل والعطاء للعلماء: لم يقف نور الدين في تعامله مع العلماء عند حدود التشجيع الأدبي والعلاقة الودية، والكلمة الطيبة ولكنه تجاوز هذا ـ على أهميته ـ إلى البذل والعطاء، فكان يمنحهم بسخاء مقدراً أن هذه الفئة

(٨٩) البداية والنهاية (١٦/ ٤٨٦).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الممتازة يجب أن تظل عزيزة الجانب وألآ تلجئها الضرورات القاسية إلى أن تنزل درجات إلى أسفل فتحني رأسها وتلوي فكرها أو تتملق وتداهن وتغش وتكذب طلباً للأجر وسداً للحاجة، ويدرك في الوقت نفسه كم هي عظمة الجهود التي يبذلها هؤلاء الرجال[90].

إن أمة تريد من علمائها أن يعطوها ثمار قرائحهم صافية خالصة عليها ألا تبخل عليهم بما يسدّ حاجتهم الضرورية ويفيض عليها لكي لا تشدّهم إلى أسفل، ولكي تظل رؤوسهم مرفوعة إلى فوق، فلا يشغلهم شيء في بحثهم عن الحقيقة، ولا تتدلى بهم حاجة عن المواقع التي بلغوها بعلمّهم، كان نور الدين إذا أعطى أحداً منهم الشيء الكثير يقول: هؤلاء جند الله وبدعائهم ننتصر على الأعداء ولهم في بيت المال أضعاف ما أعطيهم، فإذا رضوا منا ببعض حقهم فلهم المنّة علينا، ولم يبخل عليهم بتخصيص أوقاف ضخمة على المدارس وعلمائها حتى تحفظ لهم حياة كريمة.

وقد وسع نور الدين نطاق (الخدمات العلمية) للدولة ومنح الضمانات الكافية للمدرسين والدارسين على السواء، ومكنّ العلماء بما خصصه لهم من أعطيات، من أن يتفرغوا لمهامهم العلمية، وهذا المنهج من هدي عمر بن عبد العزيز، فقد وضع قانون التفرغ للعلماء والدعاة والمفكرين، كي تتيح لهم التفرغ الكامل لإنجاز مشاريع فكرية دعوية التي يعكفون عليها باختيار أو بتوجيه من الدولة فأجرى الأرزاق على العلماء، ورتب لهم الرواتب ليتفرغوا لنشر العلم ويكفوا مؤونة الاكتساب، وهذا الفعل من نور الدين محمود وعمر ابن عبد العزيز من أسباب التمكين المادية، فالأعمال العظيمة تحتاج إلى أوقات كبيرة وجهود ضخمة وهمم عالية، ولذلك تضطر الأمة الواعية إلى مبدأ التفرغ

(٩٠) نور الدين محمود الرجل والتجربة (صـ١٤٠).

مع التنوع والتكامل حتى تسد كل الثغرات التي تحتاجها ولا يقع تركيز على جانب فيتضخم بينما تهمل جوانب الأخرى ولابد من توفير المال اللازم لهذه المشاريع لأنها من أعظم القربات إلى الله ـ تعالى ـ كما يجوز أخذ مال الزكاة أو الصدقة أو الوقف أو الوصية أو الهبة أو الهدية لسد هذه الثغرات المهمة، كما ينبغي توفير كل ما يحتاجه المتفرغ وذويه من الأجر الكافي حتى يتفرغ للعطاء والبذل مع مراعاة عدم الإسراف والبذخ، ولا بد من الخوف من الله تعالى عند اختيار المتفرغ بحيث يوضع الرجل المناسب في المكان المناسب دون محابة لعمرو أو زيد، قال تعالى: M . . . ~ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ L (القصص: ٢٦).

٣ـ اهتمامه بعلماء المدارس النظامية: من أهم العوامل التي يسرت أمام نور الدين سبيل النجاح أنه لم يبدأ من فراغ وإنما استفاد من جهود المدارس النظامية التي أسسها نظام الملك الوزير السلجوقي الشهير وقد تحدثت عنها بنوع من التفصيل في كتابي دولة السلاجقة والمشروع الإسلامي لمقاومة التغلغل الباطني والغزو الصليبي، فقد انتفع الملك العادل نور الدين محمود بما حققته المدارس النظامية من نتائج باهره والتي في مقدمتها تخريج جيل يعي حقيقة الصراع والأخطار المحيطة به من باطنية وصليبية وهو مؤهلاً بأن يحمل على عاتقه مهمة الدعوة للمذهب السني والانتصار له والدفاع عنه وقد استفاد نور الدين من عدد كبير من هؤلاء العلماء الذين تخرجوا من النظاميات ومنهم: القاضي كمال الدين الشهرزوري والذي كان بمثابة وزير له، والقاضي شرف الدين بن أبي عصرون الذي أنشأ له نور الدين عدة مدارس في أماكن مختلفة، والعماد الأصفهاني الذي عمل مدرساً في بعض مدارس دمشق إلى جانب قيامه برئاسة ديوان الإنشاء لنور الدين في فترة من الفترات، والقطب النيسابوري الذي كان له دور في نشر السنة بحلب عن طريق التدريس بالمدرسة النفرية

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

النورية بها، ثم أكمل رسالته التعليمية في دمشق عندما انتقل نور الدين إليها، وعبد الرحيم بن رستم أبو الفضائل الزنجاني الشافعي (ت٥٦٣هـ) الذي ولاه نور الدين قضاء بعلبك ودرس ببعض مدارس دمشق، وأصبح الشام في عهد نور الدين والأيوبيين مركزاً لهجرة كثير من العلماء من أنحاء شتى من العالم الإسلامي، وشارك كثير منهم في الجهود التي قام بها نور الدين وهو يمكن لمذهب أهل السنة[91].

٤ـ هجرة العلماء إلى دولة نور الدين محمود: شهدت بلاد الشام في عصر نور الدين نشاطاً عالمياً لم تشهد له مثيلاً من قبل إلا لماماً، وتدفق العلماء على حواضر الدولة وبخاصة حلب ودمشق من أطراف الأرض، وقصدوا الرجل من البلاد الشاسعة[92] حتى أن بلاد الشام كانت، كما يصفها أبو شامة: خالية من العلم وأهله، وفي زمانه صارت مقراً للعلماء والفقهاء والصوفية، فالدولة التي تهيئ الأرضية الأكثر صلاحية للعطاء العلمي، وتمنح المال الأكثر للبحث والدراسة والتفرغ، وتنشئ المؤسسات اللازمة لإبداع العلماء والباحثين ـ هي التي تستقطب العقول الكبيرة في كل زمان ومكان، ولقد أدرك نور الدين أهمية هذه الهجرة العلمية فعمل بنفسه على توسيع نطاقها وراح يكاتب العلماء من شتى البلاد البعيدة والقريبة، ويستقدمهم إليه ويبالغ في إكرامهم والإحسان إليهم، وقد استقدم ـ على سبيل المثال:

أـ برهان الدين أبو الحسن علي بن محمد البلخي (٥٤٨هـ/ ١١٥٣م) وهو من علماء الأحناف، فقد استقدم من دمشق، حال استكمال بناء المدرسة الحلاّوية وفي حلب لغرض التدريس فيها، وكان قد تفقه فيما وراء النهر، وبغداد، والحجاز، ثم قدم دمشق عام ٥١٩هـ وجلس للوعظ وكان يتميز

(٩١) التاريخ السياسي والفكري للمذهب السني (صـ٢٢٢).
(٩٢) الباهر (صـ١٧١).

بصدق كلماته فلقيت قبولاً حسناً في قلوب الناس، وكان حسن الاعتقاد زاهداً في الدنيا، وقفت عليه الأوقاف الكثيرة، وكثرت الأعطيات فلم يلتفت إليها، وقد قام برهان الدين البلخي بدور كبير في مساعدة نور الدين في القضاء على مظاهر التشيع بحلب[93].

بـ الفقيه أبو العباس السلفي: فقد قام برهان الدين البلخي إثر توليه الحلاوية، باستدعاء الفقيه برهان أبا لعباس أحمد السلفي ـ من دمشق أيضاً ـ ليكون نائباً عنه فيها فاعتذر عن القدوم فسّير إليه برهان الدين كتاباً ثانياً يستدعيه فيه ويشدد عليه في الطلب، فقدم الرجل ولم يزل نائياً عن برهان الدين في المدرسة المذكورة حتى وفاته، حيث حزن عليه برهان الدين حزناً شديداً ولم يزل ـ الأخير ـ مدرساً هناك إلى أن غادر حلب إلى دمشق بسبب خلاف وقع بينه وبين ابن الداية نائب حلب، وما يلبث أن يتوفى عام ٥٤٨هـ. وحل محله في التدريس عبد الرحمن ابن محمود بن محمد الغزنوي حتى وفاته سنة ٥٦٤هـ، ثم تعاقب عليها المدرسون القادمون من جهات شتى[94].

جـ عالي بن إبراهيم الحنفي الغزنوي: تعاقب على المدرسة الحلاّوية مدرسون من جهات شتى وكان من بينهم رضي الدين محمد بن محمد السرخسي صاحب كتاب (المحيط) وكان في لسانه لكنه غير عربية، فكتب نور الدين إلى عالي بن إبراهيم الحنفي الغزنوي البلقي، وكان في الموصل، يطلب منه الوصول إلى حلب ليوليه التدريس في المدرسة المذكورة وعين في المدرسة الحلاّوية حتى وفاته عام ٥٨١هـ أو ٥٨٢هـ بينما أقّر علاء الدين على التدريس في الحلاوية وظل هناك يمارس مهمته التدريسية حتى وفاته عام ٥٨٧هـ أي بعد ثمانية عشر عاماً وقد وصفه ابن شداد بأنه: كان من ذوي التحصيل والتصانيف

(٩٣) مرآة الزمان (٨/ ٢١٩).
(٩٤) نور الدين محمود (صـ١٤٥).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

البديعة في أحكام الشريعة والكتب التي سارت في الآفاق ذكرها تفقه في بلاد المشرق على محمد بن أحمد السمرقندي وقرأ عليه معظم تصانيفه فزوجه شيخه بابنته فاطمة، الفقيهة العالمة، وقد برع علاء الدين في علمي الأصول والفروع وصنف كتاب البدائع في شرح (التحفة) التي ألفها شيخه[95].

وكانت زوجته فاطمة على قدر كبير من العلم والتقوى، تفقهت على أبيها وحفظت مصنفه التحفة وكانت تنقل المذهب نقلاً جيداً وكان زوجها ربما يهمّ بالفتوى فترده إلى الصواب وتعرفه وجهة الخطأ فيرجع إلى قولها وكانت تمارس الإفتاء وكان زوجها يحترمها ويكرمها، وكانت الفتوى تخرج بخطها وخط أبيها وزوجها وهي التي سنّت تقديم طعام الإفطار في رمضان لفقهاء المدرسة الحلاوية في حلب[96].

د ـ الإمام شرف الدين ابن أبي عصورن: وعندما تم استكمال المدرسة العصرونية في حلب عام ٥٥٠هـ استدعى لها نور الدين من إحدى نواحي سنجار ـ غربي الموصل ـ الشيخ الإمام شرف الدين ابن أبي عصرون الذي كان ـ بحق ـ من أعيان فقهاء عصره وأراد نور الدين الإفادة من كفاءة الرجل إلى المدى الأقصى فبنى له مدارس عدة في منبج وحماة وحمص وبعلبك ودمشق وفوضّه أن يولي التدريس فيها من يشاء ولم يزل ابن أبي عصرون يتولى أمر مدرسته في حلب إدارة وتدريساً إلى أن غادر حلب إلى دمشق سنة ٥٧٠هـ[97].

هـ ـ قطب الدين مسعود النيسابوري: وفي عام ٥٤٤هـ تم بناء المدرسة النفرية في حلب لتدريس المذهب الشافعي، واستدعى للتدريس فيها الفقيه المشهور قطب الدين مسعود النيسابوري مصنف كتاب (الهادي) في الفقه

(٩٥) تاريخ حلب (٤/ ٣٠٥)، نور الدين محمود (صـ١٤٦).
(٩٦) نور الدين محمود (صـ١٤٦).
(٩٧) زبدة حلب (٢/ ٢٩٣).

وكان النيسابوري قد بدأ ممارسة نشاطه العلمي في نيسابور ومرو، وسمع الحديث على عدد من الشيوخ وقرأ القرآن والأدب على والده، والتقى بأبي نصر القشيري ودرّس بالنظامية في نيسابور نيابة عن ابن الجويني، ثم سافر إلى بغداد حيث مارس الوعظ والكلام في المسائل، فلقي هناك قبولاً حسناً، وغادرها إلى دمشق عام ٥٤٠هـ فدرّس في مدارسها ووعظ في مساجدها فأقبل الناس عليه، ومن هناك استدعي إلى حلب للتدريس في المدرسة المذكورة وكان من العلم والدين والصلاح والورع بمكان كبير. ووصفه العماد الأصفهاني بأنه: فقيه عصره ونسيج وحده، وقد أرسله نور الدين ثانية إلى دمشق سنة ٥٦٨هـ لاستئناف نشاطه التدريسي هناك، فدرّس في زاوية الشافعية بمدرسة الجاروخ شمالي الجامع الأموي واجتمعت طلبة العلم عليه ومن أجل الإفادة من فقهه قرر نور الدين بناء مدرسة كبيرة للشافعية يتولى الرجل التدريس فيها، وقد شرع بالبناء فعلاً، لكن الأجل أدركه قبل استكمال عمارتها، وتوفي النيسابوري بعده بحوالي عشر سنين ٥٧٨هـ[98].

وـ سعيد بن سهل أبو المظفر المعروف الفلكي النيسابوري: المتوفى سنة ٥٦٠هـ والذي درس الحديث وأقام في خوارزم وزيراً لأميرها ورحل إلى بغداد مراراً وحدّث بها عند جماعة من الشيوخ، ثم سافر إلى دمشق في طريقه لزيارة القدس فقدم في أيام نور الدين الذي أكرم وفادته ولما طلب النيسابوري العودة إلى بلاده لم يسمح له نور الدين وأمسك به وأنزله الخانقاه والسميساطية وجعله شيخها فأقام بها حتى وفاته. وقد روى عنه المحدث الشهير أبو القاسم بن عساكره ويذكر المؤرخ البغدادي ابن الجوزي كيف أن نور الدين (كاتبه مراراً)[99].

(٩٨) البرق (صـ١٣٤)، مرآة الزمان (٨/ ٢٩٤).
(٩٩) الدارس في تاريخ المدارس (٢/ ١٥٣)، المنتظم (١٠/ ٢٤٩).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

زـ الأديب المؤرخ الشاعر العماد الأصفهاني : وفي قمة هؤلاء يقف الأديب الشاعر المؤرخ العماد الأصفهاني الذي قدم إلى دمشق عام ٥٦٢هـ وقد قدّمه كمال الدين الشهرزوري قاضي القضاة لنور الدين فاعتمده الأخير في عديد من المهام الإدارية والسياسية والإنشائية فضلاً عن الإفادة من قدراته العلمية والتدريسية حيث ولي المدرسة النورية التي سميت ـ بعدئذ ـ بالمدرسة العمادية نسبة إليه وليس ثمة من لا يعرف معطيات العماد المتنوعة الخصبة في حقول التاريخ والأدب والشعر والتي تم انجاز الكثير منها في عصر نور الدين نفسه : الخريدة، البرق الشامي، تاريخ دولة آل سلجوق، زبدة النصرة، الفيح القسي، ثم معطياته الشعرية التي لا تقل جمالاً وإبداعاً عن شعر أيّ من معاصريه الكبار كابن القيسراني وابن منير[100].

حـ الحسن بن أبي الحسن صافي مولى الأرموي البغدادي، ملك النحاة كما يسميه سبط بن الجوزي ولد ببغداد سنة ٤٨٩هـ وقرأ النحو وأصول الفقه على عدد من الأساتذة ثم دخل الشام واستوطن دمشق وله ديوان شعر جيد ومدائح في وصف النبي ﷺ وكان يضم يده على المائة والمائتين ويمسي وهو صفر اليدين وقد عاش في ظل نور الدين إلى أن مات وكان يكتب إليه[101].

طـ أبو الفتح بن أبي الحسن الأشتري الفقيه : كان معيداً بالنظامية سافر إلى دمشق وجمع لنور الدين سيرة مختصرة، أفاد منها عدد من المؤرخين وبخاصة أبي شامة في كتابه " الروضتين " .

(١٠٠) الدارس في تاريخ المدارس (١/ ٤٠٨).
(١٠١) مرآة الزمان (٨/ ٢٩٥).

ي ـ أبو عثمان المنتخب بن أبي محمد البحتري الواسطي الواعظ . . . ورد أربل ووعظ بها، وكان له قبول عظيم لدى الناس وسافر إلى نور الدين في الشام طلباً للجهاد وأنفذ له الأخير جملة من المال، لم يقبلها وردّها عليه .

كـ شيخ الشيوخ عماد الدين أبو الفتح محمد بن علي بن حموية : وفد إلى الشام عام ٥٦٣هـ وكان كبير الشأن في ميدان التصوف لم يكن له فيه يومذاك مساو فأقبل عليه نور الدين ورغبّه في المقام بالشام، وأحسن إليه، وأمر بإصدار منشورٍ يعيّن الرجل بموجبه في مشيخة صوفية الشام وغير ذلك من العلماء والفقهاء الذين استقدمتهم الدولة أو جذبتهم الظروف المشجعة في دولة نور الدين والذين تدفقوا على حواضرها وملئوا نشاطهم العلمي والأدبي مؤسساتها التعليمية، وإداراتها كذلك حتى صارت بلاد الشام في عصره مهجراً لكبار عقول الأمة[102].

٥ـ ابتعاد نور الدين عن التعصب : لم يكن نور الدين محمود زنكي متحيزاً أو متعصباً إلى مذهب من المذاهب السنية لكي يسعى ـ من خلال نشاطه المدرسي هذا ـ إلى تحقيق نصر جزئي لمذهب دون مذهب وإلى تعزيز مواقع (فقه) ما بمواجهة سائر المعطيات الفقهية، كما يحدث في عصور التقليد والتّيبّس الفكري، إنه يطمح إلى ما هو أبعد من هذا بكثير : العمل على مستوى العقيدة الإسلامية في آفاقها الرحيبة الواسعة وشموليتها التي تتسع لكل فكر إسلامي مبُدع واجتهاد خلاّق إن الرجل يطلّ على المسألة الفكرية من فوق، ويسعى إلى أن يكون الصراع الفكري، لا قتالاً وانشقاقاً في صميم الذات العقائدية للأمة المسلمة : ولكنه صراع بمواجهة خصم صليبي كان يتغلغل في حنايا الأرض ويقف بالمرصاد متحفزاً لتدمير الشخصية الإسلامية، تماماً كما يسعى استعمار اليوم الجديد وصهيونيته لتحقيقه وصراع من جهة

(١٠٢) البرق (صـ١٣٥).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أخرى بمواجهة انحرافات القرون الطويلة في مجرى التاريخ الإسلامي نفسه، وهذا هو الأخطر والأهم ومن ثم فإن قيادة الفكر الإسلامي صوب مواقع التأصيل والديمومة يجب أن تتحلى بقدر كبير من تجاوز الصراعات الجانبية والعقد التاريخية صوب ما هو أعّم وأشمل وأبعد مدى ـ وثمة حادثة ـ من بين عديد من الحوادث تناقلها المؤرخون ـ تحمل دلالتها الواضحة في هذا المجال[103].

في أعقاب وفاة أحد كبار الفقهاء المشرفين على التدريس في حلب، انقسم هؤلاء إلى قسمين كل يريد مذهب من المذاهب ويسعى إلى استدعاء الرجل الذي يخلفه في التدريس. . وتطور الجدل إلى فتنة كادت تقع بين الفريقين " فلما سمع نور الدين بذلك استدعى جماعة الفقهاء إلى القلعة بحلب، وخرج إليهم نائبه ـ مجد الدين بن الداية ـ وقال لهم على لسانه: نحن ما أردنا ببناء المدارس إلا لنشر العلم ودحض البدع من هذه البلدة وإظهار الدين، وهذا الذي جرى بينكم لا يحسن ولا يليق، ثم علمهم أن نور الدين قرر استرضاء الفريقين باستدعاء الرجلين وتولية كل منهما إحدى المدارس الشهيرة في حلب[104].

لقد وسع نور الدين محمود جبهة المواجهة تحت راية أهل السنة والجماعة واستطاع أن يرص الصفوف ويوحد الجهود أمام الأخطار الداخلية، والخارجية وحقق الأجواء الصالحة لكي ينجح مشروع أهل السنة والجماعة النهضوي الذي تبناه إن التقليد والتعصب من أعظم أسباب التفرق والانحراف عن منهج الله الرباني، ومن أهم العوامل التي أدّت إلى انتشار البدع والأهواء بين الناس، ففشت في أوساطهم، وحالت بينهم وبين سماع الحق والهدى،

(١٠٣) نور الدين محمود الرجل والتجربة (صـ١٦٥).
(١٠٤) تاريخ حلب (٢/ ٦٨).

وتركوا بسببها طريق الكتاب والكريم والسنُّةَ المطهرة، التعصب اللذان يؤديان إلى مهاوي الردى ويقودان صاحبهما إلى مسالك الغواية والضلال ويصّدان عن اتباع النور والهدى فتكون النتيجة تخبطاً وانتكاساً في الدنيا، وهلاكاً وخسرانا في الآخرة[105].

لقد انتشر مرض التعصب والتقليد في شعوب الأمة الإسلامية، لا سيما في العصور المتأخرة، وأصبح هو الأساس والأصل ونتج عن تفشيه نتائج وخيمة وأمور جسيمة وخطيرة ومن أشدها عدم قبول الحق، وردّه إذا جاء من المخالف[106].

وقد قام نور الدين محمود بمعالجة ومحاربة التعصب وفي حقيقة الأمر محاربة لأسباب الفرقة وبالتالي خطوة نحو الأخذ بأسباب النهوض، فعلى المهتمين بأمر نهوض الأمة معالجة هذه الأمراض المعضلة من التعصب وغيرها التي كانت سبباً في تفريق الأمة شيعاً وأحزاباً.

٦ـ أثر العلماء في دولة نور الدين: كان لبعض العلماء المشتغلين بالتعليم والتربية والوعظ والإرشاد دور بارز في دولة نور الدين تمثل في الآتي:

أـ الجهاد ضد الصليبيين: فقد كان عماد الدين وابنه نور الدين محمود زنكي يعملان بمشورة العلماء ومساندتهم حيث كانت لهم الكلمة النافذة والمكانة المرموقة والحظ الوافر في كل من الموصل وبلاد الشام في ذلك العهد، ومن العلماء الذين كان لهم أثر بارز في الجهاد ضد الصليبيين، الحافظ المحدث أبو القاسم علي بن الحسن بن عساكر المتوفى سنة ٥٧١هـ/ ١١٧٦م ومن أعماله التي قام بها لينضّم إلى العلماء المجاهدين توجيه الحديث الشريف

(١٠٥) في ظلال القرآن (٢/ ٩٩١).
(١٠٦) فقه النصر والتمكين (صـ٢٦٠).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

لخدمة الجهاد ضد الصليبيين باعتباره شيخ لأول دار تخصصية تنشأ لتدريس الحديث في الإسلام وهي دار الحديث النورية بدمشق فقد حرص الحافظ على تدريس ما يتعلق منه بباب الجهاد، والحث على فضائله، ودراسة الأحاديث والآداب المتعلقة به، وقد جمع لنور الدين أربعين حديثاً في فضائل الجهاد في جزء واحد دفعه إلى جمعه رغبته في حث الناس على فضائل الجهاد والاستشهاد في سبيل الله، كما كان للعماد الأصفهاني الأديب الكاتب المتوفى سنة ٥٩٧هـ/ ١٢٠١م أثر بارز في الجهاد ضد الصليبيين، فقد انتقل إلى دمشق ٥٦٢هـ/ ١١٦٦م في أيام الملك نور الدين محمود، وكان سنداً لنور الدين حيث تولى لديه العديد من الوظائف الهامة في الدولة مكّنته من الإسهام بالمشورة والتدريس والتأليف، فكانت أعماله صورة صادقة من تجاوب العلماء مع أحداث الجهاد في ذلك العهد[107].

ب ـ السفارات بين الدولة: شارك بعض العلماء في العهد الزنكي بمهمة السفارة بين الدولة الزنكية والخلافة العباسية أو الدولة المعاصرة إما يهدف الاستنجاد ضد الصليبيين أو لقضاء مصلحة بين الدولتين ومن سفراء الاستنجاد طلب المعونة ضد الصليبيين القاضي كمال الدين أبو الفضل محمد ابن عبد الله بن القاسم الشهرزوري المتوفى ٥٧٢هـ/ ١١٧٦م إذ أرسله الملك عماد الدين زنكي سفيراً من لدنه ليستنجد بالخليفة العباسي المقتفي لأمر الله (٥٣٠هـ/ ١١٣٥ ـ٥٥٥هـ/ ١١٦٠م) والسلطان السلجوقي مسعود (٥٢٧ ٥٤٧هـ/ ١١٣٣ ـ١١٥٢م) (عام ٥٣٢هـ/ ١١٣٧م) أثناء الهجوم الصليبي البيزنطي المشترك على حلب وغيرها من مدن الشام وقد مّر تفصيل ذلك، كما واصل القاضي كمال الدين القيام بهمة السفارة بين الدولة الزنكية والخلافة العباسية في عصر نور الدين محمود إذ اعتمده نور الدين سفيراً إلى

(١٠٧) الحياة العلمية في العهد الزنكي (صـ١٨٣، ١٨٤).

الخليفة العباسي المستضيئ (٥٦٦ ـ ٥٧٥هـ/ ١١٧٢م) يطلب منه تقليداً بما في يده من البلاد (الشام ومصر والجزيرة والموصل) وبما في طاعته كديار بكر وما يجاوز ذلك كخلاط وبلاد أرسلان، يقول ابن الأثير: فأكرم الخليفة كمال الدين إكرماً لم يكرمه رسول قبله وأجيب إلى ما التمسه كما برزت شخصيات من العلماء قاموا بمهمة السفارة بين نور الدين محمود في حلب والأتابك مُجير الدين أبق بن محمد آخر الحكام البوريين (٥٣٤ ـ ٥٤٩هـ/ ١١٣٩ ـ ١١٥٤م) وذلك بعد الهجمات العسكرية المستمرة التي قام بها نور الدين محمود على مدينة دمشق سنة ٥٤٦هـ/ ١١٥١م) وقد تولى المهمة الفقيه بُرهان الدين البلخي المتوفى سنة ٥٤٨هـ/ ١١٥٣م) بمشاركة الأمير أسد الدين شيركوه، وأخوه نجم الدين أيوب وتمت بين الجانبين اتفاقية سلام على شروط وقعت بينهما[108].

ج ـ تولى بعض المناصب المهمة في الدولة: كالقضاء وقد تمّ الحديث عن ذلك وكتابة الإنشاء وغير ذلك من المناصب.

ويلاحظ في حديثنا عن مكانة العلماء في دولة نور الدين محمود أمور منها:

* أن نور الدين رحمه الله، قد استفاد من العلماء على اختلاف مذاهبهم رغم أنه كان حنفي المذهب. فارتفع فوق عصبية المذهب، وكان لها سطوتها آنذاك.

* أن عصر الملك العادل، كان حافلاً بالحركة العلمية مزدهراً بالعلماء والفقهاء والقضاة من ذوي العلم الغزير، والعاملين بعلمهم، ورغم ذلك كانوا يندهشون مما يبديه السلطان من الفهم لمسائل طال الخلاف حولها، وكان يناقشهم فيها: ويعود ذلك إلى ذكاء لماح ونية حسنة،

(١٠٨) الحياة العلمية في العهد الزنكي (صـ١٨٦).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وعلم غزير، مما مكنه من حل مشكلات عصره بينما عجز عنها قبله فحول وأساطين.

* أن التعاون بين السلطان والعلماء العاملين، قد أدى إلى تغيير الأوضاع المتردية، وتجديد أحوال الأمة، والارتقاء بها نحو الأفضل، مع إقامة العدل وطرد الغزاة في أماكن كثيرة[109].

خامساً: الشورى في دولة نور الدين محمود:

اهتم الملك العادل نور الدين محمود زنكي بالشورى، فقد رأى أهميتها في حيوية الأمة وأمنها واستقرارها، والأهم من ذلك كله أن الله جعل فيها سورة من سور القرآن الكريم حملت اسمها وهو مبدأ أرشد إليه القرآن الكريم وهو يمثل أرقى أشكال التعاون قال تعالى: M i j k l m n L (الشورى: ٣٨). كما أمر الله تعالى رسوله ﷺ بمشاورة أصحابه بشكل لا يقبل التأويل في قوله تعالى: M . . . = > ? A B C D E G H I J L (آل عمران: ١٥٩).

وقال الشاعر:

إذا بلغ الرأي المشورة فاستعن برأي لبيب أو مشورة حازم
ولا تجعل الشورى عليك غضاضة فإن الحوافي قوة للقوادم

والشورى واجبة على الحاكم في الشريعة الإسلامية، وإلى هذا القول ذهب كثير من العلماء والفقهاء فلا يحل للحاكم أن يتركها، وأن ينفرد برأيه دون مشورة المسلمين من أهل الشورى، كما لا يحل للأمة الإسلامية أن تسكت

(١٠٩) الجهاد والتجديد في القرن السادس الهجري (صـ٣١٣).

على ذلك، وأن تتركه ينفرد بالرأي دونها ويستبد بالأمر دون أن يشركها فيه، فالأمة لا تنهض إلا إذا أخذت بفقه النهوض والذي منه ممارسة الشورى في نطاقها الواسع ولقد اعتمدها نور الدين محمود ولم ينفرد باتخاذ القرارات بل تبادل الآراء في كل أمور الدولة، فكان له مجلس فقهاء يتألف من ممثلي سائر المذاهب والصوفية يبحث في أمور الإدارة والنوازل والميزانية[110].

١ـ الشورى في القضايا العامة: وثمة وثيقة قيمة يثبتها أبو شامة بنصها عن أحد المحاضر التي دونت بصدد عدد من قضايا الوقف والأملاك كانت قد أدخلت ضمن أوقاف الجامع الأموي بدمشق وسعى نور الدين إلى فصلها وإعادتها إلى قطاع المنافع العامة وبخاصة مسائل الدفاع والأمن، وقد تمثلت في تلك الوثيقة بوضوح الرغبة الجادة لدى نور الدين الأسلوب الشوري الحر باعتباره الطريق الذي لا طريق غيره للوصول إلى الحق ففي تاسع عشر صفر سنة أربع وخمسين وخمسمائة أحضر نور الدين أعيان دمشق من القضاة ومشايخ العلم والرؤساء وسألهم عن المضاف إلى أوقاف الجامع بدمشق من المصالح ليفصلوها منها، وقال لهم: ليس العمل إلاّ ما تتفقون عليه وتشهدون به، وعلى هذا كان الصحابة رضوان الله عليهم يجتمعون ويتشاورون في مصالح المسلمين، وليس يجوز لأحد منكم أن يعلم من ذلك شيئاً إلاّ ويذكره، ولا ينكر شيئاً مما يقوله غيره إلاّ وينكره، والساكت منكم مصدّق للناطق ومصوبٌ له. فشكروه على ما قال ودعوا له، وفصلوا له المصالح من الوقف، فقال نور الدين: إن أهم المصالح سد ثغور المسلمين وبناء السور المحيط بدمشق والفضيل والخندق لصيانة المسلمين وحريمهم وأموالهم ثم سألهم عن فواضل الأوقاف هل يجوز صرفها في عمارة الأسوار وعمل الخندق للمصلحة المتوجهة للمسلمين فأفتى شرف الدين المالكي بجواز ذلك ومنهم من روّى في

(١١٠) فقه النصر والتمكين في القرآن الكريم (صـ٤٥٤).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

مهلة النظر، وقال الشيخ ابن عصرون الشافعي: لا يجوز أن يصرف وقف مسجد إلى غيره، ولا وقف معين إلى جهة غير تلك الجهة، وإذا لم يكن بد من ذلك فليس طريقه إلا أن يقترضه من إليه الأمر من بيت مال المسلمين فيصرفه في المصالح ويكون القضاء واجباً من بيت المال، فوافقه الأئمة الحاضرون معه على ذلك. ثم سأل ابن أبي عصرون نور الدين: هل أنفق شيء قبل اليوم على سور دمشق وعلى بناء (بعض) العمارات المتعلقة بالجامع المعمور بغير إذن مولانا؟ وهل كان إلا مبلغاً للأمر في عمل ذلك؟ فقال نور الدين: لم ينفق ذلك ولا شيء منه إلا بإذني وأنا أمرت به[111].

٢ـ مجالس متخصصة: كان مجلسه ندوة كبيرة يجتمع إليها العلماء والفقهاء للبحث والنظر، ولم تكن المناظرات التي شهدتها مجالسه تزجية للوقت وتخريجاً نظرياً للفروع على الأصول وترفاً فكرياً.. إنما كانت نشاطاً جاداً من أجل مجابهة المشاكل والتجارب المتجددة المتغيرة؛ بالحلول المستمدة من شريعة الإسلام وفقهها الواسع الكبير، ما دام الرجل يسعى إلى إعادة صياغة الحياة في ميادينها كافة وعلى مدى مساحاتها بما ينسجم وعقيدة الإسلام ورؤياه لموقع الإنسان في العالم... ومن ثم فإن ندوات كهذه أشبه بمجالس أو (لجان برلمانية) متخصصة تجتمع بين الحين والحين لحلّ مشكلة ما أو استعداد تشريع أو إقرار قانون ونحن نذكر هنا ذلك الاجتماع الموسّع الذي مرّ ذكره مع حشد من العلماء الذين اختيروا لكي يمثلوا المذاهب الفقهية كافة من أجل النظر في عدد من قضايا الوقف والمصالح العامة وقد شبه ابن الأثير مجلسه بمجلس رسول الله ﷺ مجلس حلم وحياء، لا تؤبن فيه الحرم ولا يذكر فيه إلا العلم والدين وأحوال الصالحين، والمشورة في أمر الجهاد وقصد بلاد العدو، ولا يتعدى هذا... وإلى روايته الأخرى التي يتحدث فيها عن قيام نور الدين باستحضار

(١١١) فقه النصر والتمكين (صـ٤٥٤)، نور الدين محمود الرجل والتجربة(صـ٨٠)

عدد من الفقهاء واستفتائهم في أخذ ما يحلّ له من: الغنيمة ومن الأموال المرصدة لمصالح المسلمين، فأخذ ما أفتوه بحلّه ولم يتعدّه إلى غيره البتة[112].

فما يصدر عن ممثلي الشريعة الغراء يتوجب أن يكون ملزماً لكل إنسان سواء كان في القمة أم في القاعدة، وقولهم هو القول الفصل لأن نور الدين ـ وقد عرفنا مدى صدقه مع ربّه ومع نفسه ومع رعيته ـ ما كان يريد أن يمارس الاستشارات القانونية المزدوجة، يبرز للناس أنه لا يقدم على عمل إلاّ بعد الإطلاع على رأي قادة فكرهم ومشرعي قوانينهم، ويسعى في الخفاء إلى تنفيذ ما كان قد اعتزمه مسبقاً مهما كانت درجة تناقضه مع طروحات اللجان الاستشارية والتشريعية والبرلمانية، التي ستكون بمثابة الرداء الخارجي الذي يحمي في داخله مضامين وممارسات لا تمتد إلى لون الرداء ونسيجه في شيء وكان يكاتب العلماء للاستثارة، فقد ذكر ابن الجوزي أن نور الدين كاتبه مراراً وكان نور الدين سأل العلماء والفقهاء عما يشكل عليه من الأمور الغامضة وكان يقول لمستشاريه من العلماء والفقهاء: بالله انظروا أي شيء علمتموه من أبواب البر والخير دلّونا عليه، وأشركونا في الثواب فقال له شرف الدين بن أبي عصرون: والله ما ترك المولى شيئاً من أبواب البر إلا وقد فعله، ولم يترك لأحد بعده فعل خير إلا وقد سبقه إليه[113].

٣ـ فراسته في معرفة العلماء: لم يكن الرجل يتعامل مع العلماء بحساب الجملة كما يقولون، حيث يخلط الفقيه بالجاهل، تحت ستار العلم، ويضيع الجيد بالرديء وحيث يبرز أحياناً من بين العلماء رجل أو اثنان أو أكثر، فيمتطوا المكانة التي بلغوها ويختبئوا خلف الرداء الذي لبسوه لكي يزيّفوا حقيقة، أو يلبسوا باطلاً بحق، أو يشتروا بآيات الله ثمناً قليلاً إن الرجل يرفض

(١١٢) الباهر (صـ١٧١: ١٧٣).
(١١٣) عيون الروضتين (١/ ٣٧٤)، المنتظم (١٠/ ٢٤٩).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الكذب، والكذب على الله وعلى الناس وعلى الحقيقة وبالتالي فهو يرفض الغش والتزوير والتضليل والخداع وهو ـ من الجهة الأخرى ـ يملك من الذكاء وعمق النظر وسرعة البديهة ما يجعله يزن الناس الذين يتعامل معهم بدقة عجيبة، كدقة الموازين، فهو كما قال عمر بن الخطاب ﷺ متحدثاً عن نفسه لست بالخبّ[114]، ولا الخبّ يخدعني، ومن ثم يبدو أن ليس بمقدور أي رجل أن " يعبر " على بداهة نور الدين وتفحصه الذكي للرجال، حتى لو تدثر بألف رداء علمي واختبأ خلف ستار، فهذه الحادثة التي يرويها لنا شاهد عصره العماد الأصفهاني تحمل دلالتها على علميَّة الرجل ورفضه للخرافة، وفهمه العميق للرجال: في رجب ـ يقول العماد ـ فوض إليّ نور الدين إحدى مدارسه وعوّل علي في التدريس والنظر في أوقافها وكان الفقيه فيها أبا البركات خضر بن شبل الدمشقي، فلما توفي سنة ٥٦٢هـ خلفّ ولدين واستمر فيها على رسم الوالد، ثم خدعهما رجل مغربي استهواهما بعمل الكيمياء، ونهج بهما سبيل الإغواء فصاهراه وظاهراه فغاظ نور الدين هذا المعنى وأحضرهما واستوفى عليهما أنواع التوبيخ، فلم يجد من أحدهما لأمره سمع فقال لي: تسلّم الموضوع ورتبني فيه مدرساً وناظراً[115].

والمقصود من كلامي أن الملك العادل نور الدين محمود زنكي مارس الشورى على أسس صحيحة في دولته وكانت له مجالس شورية يلتقي فيها القادة العسكريون والإداريون مع العلماء والفقهاء، فكل حاكم يريد لحكمه أن يستمر ولنظام دولته أن يستقر عليه أن يكون حريصاً على الإلمام بحقيقة الأوضاع ببلاده، والشورى خير سبيل لتحقيق هذه الغاية.

(١١٤) الخادع.
(١١٥) البرق (صـ١١٩، ١٢٠).

ومع تطور أمور الحياة لا غنى لأمة تريد أن تنهض عن مبدأ الشورى ولا مانع من ضبط ممارسة الشورى وفق نظام أو منشور أو قانون يعرف فيه ولي الأمر حدود ما ينبغي أن يشاور فيه ومتى وكيف ؟ وتعرف الأمة حدود ما تستشار فيه ومتى ؟ وكيف ؟ لأن الشكل الذي تتم به الشورى ليس مصبوباً في قالب حديدي، فأشكال الشورى وأساليب تطبيقها ووسائل تحقيقها وإجراءاتها ليست من قبيل العقائد وليست من القواعد الشرعية المحكمة التي يجب التزامها بسروة واحدة في كل العصور والأزمنة، وإنما هي متروكة للتحري، والاجتهاد والبحث والاختيار، أما أصل الشورى فإنه من قبيل المحكم الثابت الذي لا يجوز تجاهله أو إهماله لأن الشورى في جميع الأمكنة والأزمنة مفيدة ومجدية، والدكتاتورية أو حكم الفرد في جميع الأمكنة والأزمنة كريهة ومخربة[116].

إن شؤون الحياة متعددة، ولكل شأن منها أناس هم المختصون فيه وهم أهل معرفته، ومعرفة ما يجب أن يكون عليه، ففي الأمة جانب القوة، وفي الأمة جانب القضاء وفض المنازعات وحسم الخصومات، وفيها جانب المال والاقتصاد، وفيها جانب السياسية وتدبير الشؤون الداخلية والخارجية، وفيها جانب الفنون الإدارية وفيها جانب التعليم والتربية، وفيها جانب الهندسة، وفيها جانب العلوم والمعارف الإنسانية، وفيها غير ذلك من الجوانب ولكل جانب أناس عرفوا فيه بنضج الآراء وعظيم الآثار، وطول الخبرة والمرن هؤلاء هم أهل الشورى في الشؤون المختلفة، وهم الذين يجب على الأمة أن تعرفهم بآثارهم وتمنحها ثقتها، وتنيبهم عنها في الرأي وهم الذين يرجع إليهم الحاكم لأخذ رأيهم واستشارتهم، وهم الوسيلة الدائمة في نظر الإسلام لمعرفة ما تسوس به الأمة أمورها مما لم يرد في المصادر الشرعية ويحتاج إلى اجتهاد ولذلك

(١١٦) فقه النصر والتمكين (صـ٤٦٤، ٤٦٥).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ينبغي أن يعتمد في الشورى على أصحاب الاختصاص والخبرة في المسائل المعروضة التي تحتاج إلى نوع من المعرفة: ففي شؤون الدين والأحكام يستشار علماء الدين وفي شؤون العمران والهندسة ويستشار المهندسون وفي شؤون الصناعة يستشار خبراء الصناعة وفي شؤون التجارة يستشار خبراء التجارة وفي شؤون الزراعة يستشار خبراء الزراعة وهكذا. وهنا لا بد من توجيه الأنظار إلى أنه من الضروري أن يكون علماء الدين قاسماً مشتركاً في هذه الشؤون، حتى لا يخرج المستشارون في تقرير السياسات المتنوعة عن حدود الشريعة[117] لقد كان نور الدين يستشير كثيراً من كبار رجال دولته سواء من الإداريين أو السياسيين أو العلماء أو الفقهاء أو الأعيان.

(١١٧) الشورى بين الأصالة والمعاصرة (صـ٥٧، ٥٨).

وترجل الفارس

قال العماد الأصفهاني: وأمر نور الدين رحمه الله تعالى بتطهير (ختان) ولده الملك الصالح إسماعيل يوم عيد الفطر، واحتفلنا لهذا الأمر، وغُلقّت محالُّ دمشق أياما.

قال: ونظمت للهناء بالعيد والطُّهر قصيدة منها:

عيدان: فطرٌ وصَهرَ ... فتح قريب ونصر
كلاهما لك فيه ... حقاً هناء وأجر
وفيهما بالتّهاني ... رسمٌ لنا مستمر
طهارة طاب منها ... أصل وفرع وذكر[118]

قال: وفي يوم العيد يوم الأحد ركب نور الدين على الرّسم المعتاد محفوفاً من الله بالإسعاد، مكنوفاً من السماء والأرض بالأجناد، والقدر يقول له: هذا آخر الأعياد ووقف في الميدان الأخضر الشمالي لطعن الحلق، ورمي القبق وكان قد ضرب خيمته في الميدان القبلي الأخضر، وأمر بوضع المنبر. وخطب له القاضي شمس الدين ابن الفرّاش قاضي العسكر، بعد أن صلَّى به وذكَّر، وعاد القلعة، طالع البهجة بهيج الطلعة، وأنهب سماطه العام على رَسْم الأتراك، وأكابر الأملاك، ثم حضرنا على خوانه الخَاص، وله عقد كمال

(١١٨) الروضتين (٢/ ٣٠٨).

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

مصون من الانتقاض والانتقاص[119]، . . . وفي يوم الاثنين ثاني العيد بكَّر وركب وجمَّل الموكب . . . ودخل الميدان والعظماء يسايرونه، والفهماء يحاورونه، وفيهم همام الدّين مودود، وهو في الأكابر معدود، وكان قديماً في أوّل دولته وإلى حلب وقد جرّب الدهر بحنتكه . . فقال لنور الدين في كلامه عظة لمن يغتر بأيامه: هل نكون ههنا في مثل هذا اليوم في اليوم في العام القابل ؟ فقال نور الدين: قل هل نكون بعد شهر، فإنَّ السنة بعيدة، فجرى على منطقها ما جرى به القضاء السَّابق، فإن نور الدين لم يَصل إلى الشهر والهمام لم يصل إلى العام، ثم شرع نور الدين في اللعب بالكُرة مع خوّاصه، فاعترضه في حاله أمير آخر اسمه يَرَنْقُشى وقال له: ياش، فأحدث له الغيط والاستيحاش، واغتاظ على خلاف مذهبه الكريم، وخلقه الحليم، فزجره وزبره ونهاه ونهره، وساق ودخل القلعة ونزل، واحتجب واعتزل، فبقي أسبوعاً في منزله، مشغولاً بنازله، مغلوباً عن عاجلة بحديث اجله والنَّاس من الختان لا هون بأوطارهم في الأوطان، فهذا يروح بجوده، وذاك يجود بروحه، فما انتهت تلك الأفراح إلاَّ بالأتراح، وما صلح الملك بعده إلا بملك الصالح. قال: واتصل مرض نور الدين وأشار عليه الأطباء بالقصد فامتنع، وكان مهيباً فما روجع، وانتقل حادي عشر شوال يوم الأربعاء من مربع الفناء إلى مرتع البقاء ولقد كان من أولياء الله المؤمنين وعباده الصالحين، وكانت وفاة نور الدين رحمه الله تعالى بسبب خوانيق اعتزته عجز الأطباء عن علاجها " وقد توفي يوم الأربعاء الحادي عشر من شوّال سنة تسع وستين وخمسة مائة " ودفن بقلعة دمشق ثم نقل إلى تربة تجاور مدرسته التي بناها لأصحاب أبي حنيفة رحمه الله جوار الخوَّاصين في الشارع الغربي رحمه الله تعالى[120].

(١١٩) السابق نفسه.
(١٢٠) سير أعلام النبلاء (٢٠/ ٥٣٧).

وكان رحمه الله حريصاً على الشهادة وكان يقول: طالماً تعرضت للشهادة فلم أُدْرِكْ وقال الذهبي: نور الدين الشهيد، وقد رثاه الشعراء بقصائد رائعة من أحسنها ما قاله العماد الأصفهاني:

الدّين في ظَلَم لغيبة نوره ... والدهرَ في غَمم لفقد أميره
فلينْدُبِ الإسلامَ حامَي أهله ... والشام حافظ ملكه وثغوره
ما أعظم المقدار في أخطاره ... إذ كان هذا الخطب في مقدوره
ما أكثَر المتأسّفين لفقد من ... قرّت نواظرَهَم بفقد نظيره
ما أغوصَ الإنسانَ في نسيانه ... أو ما كفاه الموت في تذكيره
من للمساجد والمدارس بايناً ... لله طوعاً عن خَلَوصِ ضَميره
من ينصر الإسلام في غزواته ... فلقد أصيب بَركنه وظهيره
من للفرنج ومن لأسر ملوكها ... من للهَدى يبغي فكاك أسيره
من للخطوب مذلّلاً لجماحها ... من للزمان مَسهّلاً لو عوَره
من كاشفَ للمعاضلات برأيه ... من مَشرقَ في الدّاجيات بنوره
من للكريم ومن لنعش عثاره ... من لليتيَم ومن لجبر كسيره
من للبلاد ومن لنصر جيوشها ... من للجهاد ومن لحفظ أمَوره
من للفتوح محاولاً أبكارها ... برواحه في غزوه وبكوره
من للعَلا وعَهودها من للنَدَى ... ووفوده من للحجا ووفوره
من كنت أحسب نورَ دينِ محمد ... يخبو وليلَ الشرك في دَيْجوره
أعزز عليّ بليث غاب للهَدى ... يخلو الثرى من زوره وزئيره
أعزِز عليّ بأن أراه مَغيّبا ... عن محفل متشرّفٍ بحضوره

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

لهفي على تلك الأنامل إنّها مَذغَيَّت غاض النّدى ببحوره
ولقد أتى من كنت تَجري رسمه فضع العلامة منك في منشورة
ولقد أتي من كنت تكشف كَرْبَه فارفع طلامته بنصر عشيرة
ولقد أتى من كنت تؤمن سِرْبَهَ وقّع له بالأمن من محذَوره
ولقد أتى من كنت تَؤثر قُرْبَه فآدم له التّقريبَ في تقريره
والجيش قد ركب الغَداَة لَعرْضه فاركب لتَبصِرَهَ أوان عبوره
أنت الذي أحييت شرع محمد وقضيت بعد وفاته بنشوره
كم قد أقمت من الشّريعة مَعْلماً هو مَنْذ غبتَ مَعَرّضٌ لدثوره
كم قد أمرت بحفر خندق مَعْقِل حتى سَكَتت اللّحْدَ في محضوره
كم قيصرٍ للروم رَمّتَ بقسره إرواء بيض الهند من تاوره
أوتيت فتح حصونه وملكت عَقَر بلاده وسبيتَ أهل قصوره
أزَهدْتَ في دار الفناء وأهلها ورَغبت في الخَلْد المقيم وحَوره
أوَمَا وعدت القَدّسَ أنك منَجزٌ ميعاده في فتحه وظهوره
فمتى تجير القَدّسَ من دَنَس العدَى وتقدّس الرحمن في تطهيره
يا حاملين سريره مهلاً فمن عَجَبٍ نهوضكم بحمل ثبيره
يا عابرين بنعشه أنشقتَمَ من صالح الأعمال نشر عبيره
نزلت ملائكة السماء لدفنه مستجمعين على شفير حفيره
ومنَ الجفاءَ له مقامي بعده هلاّ وفيتَ وسرتَ عند مسيره
حَيّاك مَعْتلّ الصّبا بنسيمه وسقاك مَنْهَلَ الحيا بدروره

ولبستَ رضوان المهيمن ساحباً أذيال سَندس خزّه وحريره
وسكنت علّيّين في فِردَوْسِه حِلفَ المسَرّة ظافراً بآجوره

قم أيها الفارس البطل وانظر إلى حكام العرب والمسلمين اليوم، أنهم هم الذين يجلبون الإفرنج لمحاصرتهم واحتلالهم وإذلالهم، وهم لا يخجلون من الله العلي القدير وهم فرحون يضحكون من الأعماق كلما أذلوهم أكثر.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com